الخصائص البلاغية

في

فن الابتهال

إعداد الدكتور

ياسر عبد الحميد حسين عرقوب

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بدسوق

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

يتتبع هذا البحث لونا من ألوان النثر الأدبي لم تتجه إليه أقلام البلاغيين –ربما لأسباب ذكرتها في المقدمة والتمهيد– وهو فن الابتهال، مبرزا خصائصه البلاغية، وموضحا مدى مواءمة هذه الخصائص للمعاني التي يرمي إليها المبتهلون؛ علِّي بذلك أنفض بعض الغبار الذي تراكم على هذا اللون الأدبي الجميل الذي اختفي عن أعين الباحثين، وقد استعرضت في هذا البحث– بعد مقدمة وتمهيد موجز عن الابتهال– الألوان البلاغية الشائعة في هذا الفن، مبينا مدي قدرة هذه الألوان على حمل استغاثات المكروبين، وضراعات المبتهلين، والتعبير عنها في صورة رائقة تتناسب مع مقام الابتهال الذي يخاطب فيه المخلوق الضعيف الخالق القوي، مما يحتم على المبتهل أن يتخير الأساليب التي تتناسب مع هذا المقام الرفيع، فهل وُفق المبتهلون في اختيار الأساليب المناسبة؟ وهل كان لهذا الفن خصائص بلاغية تجعله جديرا بالدراسة مثل باقي الألوان الأدبية الأخرى؟ هذا ما تحاول الدراسة الإجابة عنه إن شاء الله تعالى.

Research Summary

This research traces a color of literary prose to which the Palaeghin pens did not go - perhaps for reasons I mentioned in the introduction and the preface - the art of libel, illustrating its rhetorical characteristics, and showing the extent to which these characteristics corresponded to the meanings intended by the evangelists; thus removing some of the dust that accumulated on this color Literary literature, which disappeared from the eyes of researchers، I have reviewed in this research - after an introduction and a brief introduction to the rhetoric - the rhetorical colors common in this art, showing the ability of these colors to carry the repressions of the oppressed, and the wrathful of the oppressors, and express them in a beautiful image commensurate with the epitaph of the weak creature, It is imperative for the imbecile to choose the methods that suit this high place. Did this art have rhetorical characteristics that make it worthy of study like other literary colors? This is what the study is trying to answer, God willing.

المقـــدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وسيد المبتهلين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد،،

فإن أهم ما يميز البحوث عامة والبلاغي منها خاصة الجدة في الموضوع، وفن الابتهال من الفنون الأدبية التي لم يتعرض لها – علي حد علمي– دارسوا البلاغة، فقد كثرت وتعددت دراساتهم حول الفنون الأخرى، وأغفلوا هذا اللون من الأدب، ولعل ذلك راجع – فيما أري– إلي أن علماء الأدب لم يتعرضوا لهذا اللون، اللهم إلا في بعض الدراسات التي لا تعدو أصابع اليد الواحدة[1]، على الرغم من أن هؤلاء العلماء قد دعوا إلي أن يكون هذا اللون هو محل نظر الدراسين، ومحط اهتمامهم.

يقول الدكتور/ محمد رجب البيومي في معرض حديثه عن إغفال الأدباء لهذا اللون الأدبي، ومناشدتهم النظر إليه، بعد أن عرض نماذج مشرقة له:

١– بحثت فلم أجد سوى: دراسة واحدة أدبية أفردت فن الابتهال وخصته بالبحث وهي بعنوان: "من الأدب الصوفي، فن الابتهال للدكتور/ أمين بدران، وهي بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالمنوفية –جامعة الأزهر– العدد السابع والعشرون – المجلد الأول–١٤٣٣هـ– ٢٠١٢م. ودراستين أخريين تعرضتا للحديث عن هذا الفن في ثنايا حديثهما عن قضايا أخرى، ولم يفردا له بحثا خاصا به، إحداهما: لأستاذنا الدكتور/ محمد رجب البيومي- رحمه الله– بعنوان: " البيان النبوي"، طبعة دار الوفاء، ط١سـ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م، والثانية: لأستاذنا الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي– رحمه الله– بعنوان" الأدب في التراث الصوفي" طبعة مكتبة غريب، وتعرض له في دراسته تحت عنوان" أدب الدعاء والمناجاة".

والملاحظ على هذه الدراسات أنها ربطت هذا الفن بالصوفية وأدبهم على الرغم من أنهم أشاروا إلى أن هذا الفن موجود منذ عهد النبيﷺ وصدر الإسلام؛ ولعل ذلك لأن هذا الفن كثر واشتهر عند الصوفية فأصبح مرتبطا بهم وبأدبهم.

(... كما نلفت النقاد إلي إنقاذ غرض هام من الأغراض الأدبية الجميلة كاد أن يعفي عليه النسيان)[1].

فالدراسة في هذا الفن من الدراسات القليلة في الميدان الأدبي، ولم أعثر علي دراسة بلاغية تتعرض لهذا اللون، مما حداني إلي خوض غمار التجربة، والإبحار في هذا البحر الزاخر علِّي أستخرج بعضا من كنوزه، هذا فضلا عن أن فن الابتهال هو مخاطبة المخلوق الضعيف للخالق القوي، فلابد إذاً أن يغلب عليه الطابع الروحاني، لأن الكلام فيه خارج من القلب، متمثل فيه الصدق في أبهي صوره، فكان من أكثر الفنون تأثيرا في المتلقي، وجذب انتباهه، وتحريك وجدانه، فالمبتهلون ساعة يقبلون على خالقهم سبحانه يتحررون من حظوظ النفس والهوى ، ويرتقون إلى سدّة الصدق مع الله ، وتمام الرضا عنه ، وكمال الثقة به ، والتوكل عليه ، ولذلك يأخذ حديثهم بمجامع القلوب؛ فيكون لكلامهم تأثير شديد في النفوس؛ مما جعل الابتهال يتميز عن بقية الأجناس الأخرى بخصائص؛ مما دفعني إلي البحث عن هذه الخصائص وإبرازها، وبيان مدى مواءمتها لمقام الابتهال، ليتبين جمال هذا اللون وأهميته.

جدير بالذكر أن هناك من الأدباء والنقاد والمثقفين من ينظرون إلى هذا الفن نظرة تردد في قبوله، أو الإقدام على دراسته؛ ربما لأنهم ربطوه بغلاة الصوفية الغارقين في الرمز والخيالات الفلسفية، وليس الأمر كذلك؛ فإن لسيد الخلق ﷺ ابتهالات، ولبعض الصحابة رضي الله عنهم ابتهالات، وللمعتدلين من أهل التصوف ابتهالات، ولهذا فإنني اعتمدت في هذه الدراسة على شواهد من ابتهالات النبي ﷺ، والإمام علي ﷺ، والمعتدلين من أهل التصوف، لعل ذلك يساعد في القضاء على هذه النظرة التي تربط هذا الفن بغلاة المتصوفين.

[1] – البيان النبوي: ص٢١٢.

ويرمي هذا البحث إلى بيان الخصائص البلاغية لفن الابتهال، والاستشهاد عليها بنماذج مختارة تنتمي لهذا الفن؛ ليتبين من خلال الدراسة مدى موافقته للقواعد التي وضعها البلاغيون، وبالتالي تتضح أهمية دراسته.

وتقوم الدراسة على تتبع الخصائص البلاغية الشائعة في فن الابتهال، من خلال عرض نماذج لها، وتحليلها، وتعليلها.

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، فكنت أعرض الظاهرة البلاغية التي تميز بها فن الابتهال تحت عنوان معين ثم أصف ورودها، وأقوم بتحليلها لبيان توافقها مع مقام الابتهال من خلال الاستشهاد بنماذج مختارة تنتمي لهذا الفن.

وبدأت بعرض الظواهر أو الخصائص الأكثر وروداً في فن الابتهال، ثم بما يليها وصولا إلي أقل الألوان البلاغية وروداً، ولذلك جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة وبعض الفهارس.

أما المقدمة، فقد تحدثت فيها عن أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وطريقة السير في دراسته.

التمهيد: وجاء حول مفهوم الابتهال، ونشأته.

المبحث الأول: خصائص الألفاظ والتراكيب والمعاني.

المبحث الثاني: الأساليب الإنشائية وخصائصها في فن الابتهال.

المبحث الثالث: القصر وخصائصه في فن الابتهال.

المبحث الرابع: التكرار وخصائصه في فن الابتهال.

المبحث الخامس: المحسنات البديعية وخصائصها في فن الابتهال.

المبحث السادس: علم البيان وخصائصه في فن الابتهال.

الخاتمة: عرضت فيها أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة.

ثم ثبت بأهم المراجع والمصادر، وفهرس للموضوعات.

وتجدر الإشارة إلى أنني لم أشأ أن أقدم لكل خصيصة من الخصائص بتعريف اللون البلاغي الذي سأتناوله، واستعراض ما كتبه البلاغيون عنه-

على غير عادة الدارسين-؛ لأنها أمور معلومة لدى القارئ الكريم؛ لذا استحسنت عدم ذكرها، لأنه يعد من قبيل تحصيل الحاصل.

والله تعالى من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

د. ياسر عبد الحميد حسين عرقوب
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق
جامعة الأزهر

تمهيد

حول مفهوم الابتهال، ونشأته

جاء في لسان العرب لابن منظور: التبهُّل: العناء بالطلب...، وابتهل في الدعاء: إذا اجتهد، ومبتهلا: أي مجتهدا في الدعاء، والابتهال: التضرع، والابتهال: الاجتهاد في الدعاء و إخلاصه لله عز وجلّ.[١]

وأصل الابتهال: الالتعان (يقال: بهله الله أي لعنه الله، هذا أصل الابتهال، ثم استعمل في كل دعاء مجتهد فيه، وإن لم يكن التعانا)[٢]، فـ(باهلت فلاناً، أي: دعونا علي الظالم منا)[٣]، ثم(اشتهر في اللغة : فلان يبتهل إلي الله –تعالي– في قضاء حاجته، ويبتهل في كشف كربته)[٤].

ويفرق القرطبي بين الدعاء والابتهال فيقول ناسبا هذا القول لابن عباسﷺ: "إذا أشار أحدكم بإصبع واحد فهو الإخلاص، وإذا رفع يديه حذو رأسه فهو الدعاء، وإذا رفعها حتي يجاوز بهما رأسه وظاهرهما مما يلي وجهه فهو الابتهال)[٥]، ويؤيده أن معظم الابتهالات يقدم لها بالقول: فرفع يديه إلي السماء فقال: ... .

---

[١] – لسان العرب لابن منظور (بهل) ٧/١١.، دار صادر بيروت ط٣ ١٤١٤هـ .

[٢]– معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ت/عبدالجليل شلبي، ٤٢٣/١، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م، وأيضا: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي: ٢٨٧/٥،، ت/عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١ ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .

[٣] – معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (بهل)، ٥٤/٤، ت د/مهدي المخزومي، د/ابراهيم السامرائي، نشر دار ومكتبة الهلال.

[٤] – اللباب في علوم الكتاب : ٢٨٧/٥.

[٥] – الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي: ٣٣٧/١١. ت/أحمد البردوني وإبراهيم أطفيس. دار الكتب المصرية– القاهرة– ط٢ ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

وذكر صاحب عون المعبود أنه: " قد جرت عادة المسلمين خاصتهم وعامتهم بأن يدعوا ربهم عند الابتهال والرغبة إليه ويرفعوا أيديهم إلي السماء، وذلك لاستفاضة العلم عندهم بأن ربهم المدعو في السماء سبحانه"[١].

وفي مسند الإمام أحمد عن أنسﷺ: **(رفع رسول الله ﷺ يديه بعرفه يدعو، فقال أصحاب النبي ﷺ هذا الابتهال، ثم حاصت الناقة ففتح يديه فأخذها وهو رافع الأخرى)**[٢]، والدعاء أعم من الابتهال، حيث أن معظم التعريفات التي ذكرت وغيرها تدل علي أن الابتهال هو الاجتهاد في الدعاء والمبالغة فيه والاسترسال- وهو ما تميل إليه النفس-، ويؤيده قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١]، أي: يجتهد كل منا ويخلص في الدعاء على الكاذب منا.

وذكر الطاهر بين عاشور أن: "الابتهال قد يستعمل مجازا في مطلق الدعاء"[٣].

كما أن "الابتهال مناجاة، وبث الشكوى، وإقرار بالعجز، وإضفاء لقوة الثناء علي الذات، أما الدعاء فطلب جلب الخير ودفع الضر ممن بيده الأمر، ويمكن القول بأن الابتهال دعاء ضمني، والباعث عليهما التضرع واللجوء، ومن الابتهالات مالا يكون ممزوجا بالدعاء الصريح، ومنها ما يكون ممهورا بالأدعية النصية، ويندرجان تحت ما يسمي بأدب المناجاة. وأغلب الظن أن

---

١ - عون المعبود شرح سنن أبو داود ومعه حاشية ابن القيم. تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته: ٢٦/١٣. دار الكتب العلمية. بيروت ط٢، ١٤١٥هـ.

٢ - الحديث: أخرجه البزار في مسنده: ١٤/ ٨٥، رقم (٧٥٥٨) تحقيق: عادل بن سعد وآخرين، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٩م.

٣ – التحرير والتنوير للطاهر بن محمد بن عاشور: ١٦٦/٣. الدار التونسية للنشر- تونس.١٩٨٤م.

المناجي أقرب قلبا وأعلق نفسا من الداعي الذي ربما لا يكون وكده إلا إجابة سؤله، أما المناجي فكلف بلذة المناجاة، بغيته رضاء مولاه"[١].

والابتهال يكون غالبا وقت الشدة، ويقال: ابتهر في الدعاء: إذا كان يدعو كل ساعة لا يسكت"[٢].

ومن لوازمه: الخضوع والتذلل والاستكانة بين يدي المولي سبحانه والتجرد من الحول والطول، فإن ذلك أدعي لقضاء الحاجة وإجابة السؤال، يقول المناوي: "ولابد في ذلك من كمال إظهار الانكسار والافتقار من ضم الابتهال الفعلي إليه بمد بطن الكف علي سبيل الضراعة إليه ليصير كالسائل المتكفّف لأن يملأ كفه بما يسد حاجته"[٣].

ويفرق كذلك بين الابتهالات والتواشيح الدينية بأن التواشيح تكون بين الشيخ وبطانته، أما الابتهالات فتكون بالارتجال والألحان الفورية، وتعني كلمة "ابتهال" في اللغة العربية الخشوع والتضرع إلي الله لطلب العون، والتقرب إلي الله بالدعاء والرجاء، وهو موجود منذ قديم الزمان، أما التواشيح فهي نوع من الشعر استحدثه الأندلسيون، ولها أشكال مختلفة لا يتقيد فيها الناظم بقافية واحدة.

وهناك فرق كذلك بين الابتهال والإنشاد الديني، فالابتهال يكون دون آلات موسيقية، ويكون متنوعا بين القصر والطول، بينما الإنشاد يعتمد علي الآلات الموسيقية ويكون بقصيدة شعرية كاملة؛ ولذلك كان الابتهال "أقرب إلى النثر منه إلى الشعر، وإن كان هذا لا يمنع من وجود ابتهالات في قوالب

---

١ – من الأدب الصوفي، فن الابتهال د/ أمين بدران ص١٦. .

٢ – تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهري الهروي، ت/محمد عوض مرعب، ١٥٣/٦، دار إحياء التراث العربي– بيروت ، ط١ ٢٠٠١م، ولسان العرب: بهر " ٨٣/٤.

٣ – فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي : ٣٦٩/١–المكتبة التجارية الكبرى– مصر، ط١ ، ١٣٥٦هـ .

شعرية كما هو الحال في بعض ضراعات رابعة العدوية، غير أن هذا النمط الشعري قد اندرج تحت ما يسمى "الحب الإلهي"[١].

وقد نشأ هذا الفن منذ العهد النبوي في أدعية النبي ﷺ فقد ورد عنه ﷺ كثير من الابتهالات مع كل موقف كان يتعرض له ﷺ فلا يجد ملاذا إلا أبواب السماء يرفع يديه، ويتوجه إلي خالقه سبحانه ويسأله حاجته، وتابعه في ذلك الصحابة والتابعون، وتابعوهم إلي عصرنا هذا، يقول الدكتور/ محمد رجب البيومي: "وكانت نشأة الابتهال الأولي في دعوات الرسول- وتتابع بعد ذلك في دعوات الصحابة والتابعين، وأوراد المتصوفين، وأحزاب الذاكرين"[٢]، ويتابع قائلا: "كان النبي ﷺ أول ملهم في الإسلام تطلع إلي أنوار السماء، فانتقلت في قلبه نورا، وفاضت علي لسانه ابتهالا صادقا، ودعاء يرتقي إلي سدرة المنتهي دون معراج"[٣].

والمبتهل صادق الشعور، مرهف الحس، طامع في إجابة سؤله، متيقن تماما أن" العبد إذا ابتهل إلي الله، ورمي نفسه بين يديه، وطرق بابه، وطلب منه المعونة علي شيء سَّهل أسبابه"[٤]، لذلك فهو متجرد من الحول والطول، لا يري غير ربه سبحانه ملاذا يلجأ إليه، فهو يرفع يديه منكسرا أمام خالقه، وهو يعرف تمام المعرفة أنه يدعو كريما لا يرد حاجة من دعاه، ففي الحديث

---

[١]- من الأدب الصوفي، فن الابتهال، د/ أمين بدران صـ١٥٨.

[٢] - البيان النبوي: ص٢٠٩.

[٣] - البيان النبوي: ص٢١٣.

[٤] - غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، لشمس الدين أبو العون محمد بن أحمد بن سالم الحنبلي: ١١/١، مؤسسة قرطبة.ط٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

الصحيح: **(إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)**[١] .

وفن الابتهال يبرز الجانب المشرق للأدب الصوفي الذي يسمو بالنفس ويرتقي بها إلى سماوات القرب، ومدراج الكمال، وإن كان بعض الأدباء قد ينظر إليه نظرة تجاهل وتغافل لهذا اللون الراقي من الأدب، ولعل السبب في ذلك ما ذكره الدكتور/ خفاجي- رحمه الله -: " لقد تجاهل مؤرخو الأدب العربي هذا اللون الصوفي الروحي لأنهم ساروا علي نهج المستشرقين في دراسة الأدب العربي، والمستشرقون لا يحبون أن يكون هناك أدب إسلامي هادف، ومن ثم البيئات الأدبية الثابتة في قلب النهضات العربية تتجاهل الأدب الصوفي لأنها ترنو بعيونها إلي الغرب لا إلي أنفسنا وبيئاتنا وتراثنا"[٢].

كما أن نظرتهم إلي الأدب الصوفي هذه ربما تكون لأنهم حصروا الأدب الصوفي في غلاة الصوفية، الذين يكثرون من استخدام الرمز والخيالات الفلسفية التي تتصادم مع الدين والعقل، وهؤلاء الغلاة موجودون في كل الفنون، فلو اتُّخذوا مقياسا في كل فن لضاع كثير من أدبنا الجميل.

ولذلك تساءل الدكتور/ محمد رجب البيومي: "لماذا نقصر الأدب الصوفي علي الغزل الرمزي والشطحات الفلسفية فلا نتحدث في مجال الأدب لدي المتصوفين إلا عن ابن عربي وابن سبعين والبسطامي والحلاج لنغرق في أوهام الحلول ووحدة الوجود والاتحاد، إننا نصارح بالحقيقة حين نعتبر أكثر ما قيل في ذلك دخيلا علي الأدب الصوفي الحقيقي، وهو الذي نبع من حقائق القرآن وتعاليم الحديث، ثم تمثل أول ما تمثل في ابتهالات رسول الله"[٣].

---

[١] – الحديث: أخرجه أبو داود في سننه: باب: الدعاء: ٢/ ٧٨، رقم (١٤٨٨)، وصححه محققه الألباني، والترمذي في سننه: أبواب الدعوات: ٥/ ٥٥٦ رقم (٣٥٥٦). وصححه محققه الألباني.

[٢] – الأدب في التراث الصوفي- د/محمد عبدالمنعم خفاجي ص٧٣.

[٣] – البيان النبوي: ص٢٠٧.

وتشتد غيرته على هذا الفن فيستطرد قائلا: "إن مؤرخي الأدب العربي لم يفهموا أن معنى الأدب في صميمه هو التعبير الجميل عن الخاطر الجميل، بل فهموا أنه في الشعر مجموعة القصائد ذات الأغراض التقليدية، وفي النثر رسائل وخطب تشغل شئون الناس في أحوالهم العامة، أما الابتهالات الصادقة فمما يجب أن يعكف عليه الوعاظ والنساك لا النقدة والأدباء، وهو فهم قد هوى بكثير من الروائع الملهمة إلى دياجير النسيان، بينما ارتفع بالهجاء والمجون والغزل بالمذكر وما شابه ذلك إلى مشارق الترديد والاحتفاء، وإلا فكيف جاز أن يبتدع محمد ﷺ فن الابتهال في الأدب العربي، ويحاكيه عشرات من البلغاء على مد العصور الإسلامية، فيأتوا بذخائر غالية من أحاسيس الملهمين ثم لا يلتفت إلى تقديرها النقاد"[1].

وهناك سبب آخر ذكره الدكتور/ أمين بدران وهو: "أنه ربما وقعت أعين المتأدبين علي بعض النماذج التي لا ترقي إلي مستوي الفنية، فجاء حكمهم علي هذا النثر بأنه أقرب إلي الدعاء منه إلي الأدب، إذ الدعاء مجرد طلب لا يعني قائله بجماليات الأداء، لأن الله جل وعلا لم يجعل تنميق الأسلوب من مقتضيات الإجابة، فحسب الداعي أن يخلص ولا عليه بعد هذا أن يتحدث بأي أسلوب شاء"[2].

وربما تسهم مثل هذه البحوث في تغيير النظرة إلي هذا الأدب، واستشراف جوانبه المشرقة، ونفض الغبار عنه.

❁❁❁❁❁

[1] – السابق . ١.٨/١.٩.

[2] – من الأدب الصوفي– فن الابتهال . د/ أمين بدران ص١٦.

المبحث الأول

خصائص الألفاظ والتراكيب والمعاني

المتأمل في فن الابتهال يدرك اشتماله على كثير من الخصائص التي تميز ألفاظه، وتراكيبه، ومعانيه، وتجعل لهذا النوع من فنون الأدب طابعه الخاص؛ لأن جميع المنتمين لهذا الفن تتوحد وجهتهم، حيث إنهم يتوجهون إلى خالقهم سبحانه فألفاظهم، وتراكيبهم، ومعانيهم تخرج من عباءة واحدة؛ مما جعل لها طابعها المميز.

ومن أبرز الخصائص التي تميزت بها الألفاظ والتراكيب في هذا الفن:

أولًا: رقة الألفاظ وجمالها، وسهولة التراكيب ووضوحها:

فالألفاظ رقيقة سهلة فصيحة لا وعورة فيها، والتراكيب سهلة واضحة لا غموض فيها؛ وذلك لأن المبتهل يعيش حالة صفاء نفسي فيطلق نفسه على سجيتها، ولا يتكلف ألفاظا لأنه يخاطب خالقه سبحانه وهو أعلم بحاله، فلا يحتاج تكلفا في مخاطبته؛ لهذا كانت الرقة هي المناسبة لمقام الابتهال.

يقول ابن الأثير: (الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحرب، وفى قوارع التهديد، والتخويف، وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفى استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك. ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عُنجهية البداوة، بل أعنى بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع، وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسفاً، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس... وسأضرب لك مثالاً للجزل من الألفاظ والرقيق فأقول: انظر إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط، وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا، وما جرى هذا المجرى فإنك لا ترى شيئاً من ذلك وحشى الألفاظ، ولا متوعراً، ثم انظر إلى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة والملاطفات في خطاب الأنبياء وخطاب

المنيبين والتائبين من العباد، وما جرى هذا المجرى فإنك لا ترى شيئاً من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسفاً... واعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج...)[1].

ويتضح من كلام ابن الأثير السابق أنه جعل الرقة في الألفاظ سمة من سمات خطاب المنيبين والتائبين، ويتأكد ذلك من خلال استعراض النماذج التالية.

تأتى الرقة بسلاستها ولينها ولطفها في كثير من أحاديث الدعاء والابتهال إلى الله، والدعاء عبادة وخشوع، وطلب وذل وانكسار بين يدى الله تعالى فتأتى ألفاظ الابتهال برقتها لتنسجم مع حال هذا الداعي الذى يطلب من الله تعالى، ومن ذلك قوله ﷺ: **(اللهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ شِمَالِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا)**[2].

وبالتأمل في هذا الابتهال يلمح الملتقي (الرقة والتدفق في ألفاظ الحديث كما يلمح التناغم والهدوء يكتنف هذه الألفاظ؛ لأن النبي ﷺ دعا بهذا الدعاء في صلاة الليل، وألفاظ الحديث برقتها تناسب جو الليل الهادئ الوديع الساكن، وهنا نري الألفاظ والموضوع وما يحيط بهما من الزمن تتجاوب كلها

---

[1]- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ١/١٧٢- ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد- المكتبة العصرية للطباعة والنشر. بيروت.١٤٢.هـ.

[2]- الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه: ١/٥٢٨، رقم (٧٦٣)، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

فيما بينها وتتدفق في رقة وهدوء)[1]، وهذه الرقة في الألفاظ تنعكس بدورها على التراكيب فتأتي سهلة واضحة.

ومن أوضح الأمثلة على الرقة في هذا الفن ما نجده عند أبي حيان التوحيدي (ت٤٠٠هـ)[2] من ابتهال طويل، حيث يقول:

"اللهم احجز بيننا وبين كل ما دل على غيرك، انقلنا من مواطن العجز مرتقيا بنا إلى شرفات العز، فقد استحوذ الشيطان، وخبثت النفس، وساءت العادة، وكثر الصادفون عنك، وقلّ الداعون إليك، وقلّ المراعون لأمرك، وفقد الواقفون عند حدودك، وخلت ديار الحق من سكانها، وبيع دينك بيع الخلق، اللهم فأعد نضارة دينك، وامدد علينا ظل توفيقك، اللهم بك نعتز كما أنا بغيرك نذل، وإياك نرجو، كما أنا من غيرك نيأس، اللهم إنك تملك العالم كله وما بعده وما قبله، ولك فيه تصاريف القدرة وخفيات الحكمة ونوافذ الإرادة، ولك فيه مالا ندريه مما تخفيه ولا تبديه، جللت عن الإجلال، وعظمت عن التعظيم، فكن عند ظننا بك، وحقق رجاءنا فيك، فما خالفناك جراءة عليك، ولا عصيناك تقحما في سخطك، ولا اتبعنا هوانا استهزاء بأمرك ونهيك، ولكن غلبت علينا جواذب الطينة التي عجنتنا بها، وبذور الفطرة التي أنبتَّنا منها،

---

[1]- الخصائص البلاغية للبيان النبوي د/ محمد أبو العلا الحمزاوي، صـ٨٢، مكتبة الرشد، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

[2]- هو علي بن محمد بن أحمد بن العباس، أصله من نيسابور، وهو بغدادي، سكن شيراز، كان أديبا نحويا لغويا، له مصنفات مشهورة كالبصائر وغيرها. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.١٤٨/٢١.ت/ مصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية-بيروت، ط١-١٤١٧هـ.

فلسنا ندَّعي حجة، ولكن نسألك رأفة، إنك أهل ذلك وإنك على كل شيء قدير"[١].

ما أرق هذا الابتهال! فالألفاظ تتدفق في رقة حانية فيها من التوافق والتناغم ما يناسب الحديث عن التوبة والرجوع من ناحية، ويناسب في الوقت نفسه حال هذا التائب الخاشع المنكسر بين يدي مولاه، يرجو رحمته، ويخاف عذابه من ناحية أخرى، فالمبتهل هنا خائف عاجز لكنه في الوقت نفسه يتخذ من الابتهال إلي ربه سبيلا للرجوع والتوبة فيكون بين الخوف والرجاء وهما "جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان- مع كونه بعيد الأرجاء، ثقيل الأعباء، محفوفا بمكاره القلوب، ومشاق الجوارح والأعضاء- إلا أزمّة الرجاء، ولا يصد عن نار الجحيم، والعذاب الأليم- مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات- إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف"[٢].

وبهذا كان الخوف والرجاء وسيلتان للنجاة؛ لأنهما يرتفعان بالإنسان إلى أسمى المراتب وأعلاها وأشرفها، وهي منزلة تستلزم الرقة واللطف، وهكذا ناسبت الرقة أحاديث الابتهال بما فيها من ذل وخضوع وانكسار بين يدى الله ﷻ أيما مناسبة، وإذا أردنا المزيد من النماذج التي تفيض ألفاظها رقة وسهولة فلنرجع إلى ابتهالات الإمام علي رضي الله عنه فسنجد أنها تصلح أن تكون كلها مضرب المثل في رقتها وعذوبتها[٣].

---

[١]- دراسات في التصوف الإسلامي د/ خفاجي ١/ ١٤٩. وينظر: البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي.٦/٤، ت/ د/ وداد القاضي-دار صادر- بيروت-ط١، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م.

[٢] - إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي: ١٤٢/٤، نشر دار المعرفة، بيروت.

[٣] - ينظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي ١٤٣/١، ١٤٤، وما بعدهما، ت/عبود الشالجي- دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

ثانيا: البعد عن التكلف:

معلوم أن التكلف في الكلام يضعف تأثيره على المتلقي، ويحول دون وصول المعاني لقلب المخاطب، ودواعي التكلف في الكلام كثيرة لعل أبرزها ما ذكره أستاذنا الدكتور/ محمد رجب البيومي قائلا: "أظهر ما يكون التكلف في قول يقال لأن السامع لا يفتح صدره لمن يلمس فيه هذا الخلق الثقيل، ومهما كان قوله صائباً صحيحاً فإن مسحة التكلف تلقى عليه ظلالا بغيضة تجعله أشبه بالقول المخطئ وما هو به؛ لأن الروح التي يصدر عنها لا تظهر صافية مطبوعة، بل تعانى من آصار التكلف والتصنع ما يكاد يعصف بما لديها من السداد والإصابة "[1].

فقد أرجع أستاذنا – رحمه الله– سبب التكلف إلى عدم إقبال السامع على المتكلم، وضيقه ذرعا به، فالمتكلم يحاول جاهدا أن يتكلف كلاما ليرضيه، وهذا الدافع غير متوفر لدى المبتهلين؛ فهم يقبلون على خالقهم سبحانه موقنين بشدة قربه لهم، وإقباله عليهم، مدركين أن من تقرب إليه تعالى شبرا تقرب منه ذراعا ، وكلما زاد العبد قربا زاد الرب كرما وإقبالا؛ لذا فهم ليسوا في حاجة إلى أن يتكلفوا في كلامهم ليستجدوا إقباله عليهم، فالله تعالى أكرم من ذلك؛ من هنا جاءت ألفاظ المبتهلين سهلة فصيحة لا تكلف فيها ولا تقعر.

وقد بدا هذا واضحا في كل أدعية المبتهلين المعتدلين، وعلى رأسهم سيد الخلق ﷺ في هذا الدعاء الضارع الذي يعلّم فيه أمته كيف تستقبل اليوم الجديد، وكيف تودعه، وأن تدعو كل صباح، وكل مساء، في الحديث الذى أخرجه ابن ماجه في سننه قال: عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَعُ هَؤُلاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي، وَحِينَ يُصْبِحُ:

[1]– البيان النبوي صـ٢٤٧.

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»[1].

ولا يخفى على قارئ أو مستمع ما تحويه ألفاظ هذا الابتهال النبوي الكريم، من عذوبة وجمال، ورقة ودقة ووضوح، إنها عبرات لا تكلُّفَ فيها ولا تقعر، إنها حقا من جوامع الكلم!!!.

فلا يوجد فيها كلمة متكلفة أو تقارب التكلف، وإنما هي ألفاظ تنساب في سهولة ويسر معبرة أصدق تعبير عن صدق التوكل، والرغبة في ستر الله وحفظه، والتحصن بحصنه المتين من كل ما يضر.

وعلى نحو هذا الأسلوب النبوي الكريم نسج المبتهلون؛ لأنها لحظات صدق وضراعة ومناجاة، لا تعرف التقعر أو المغالاة.

ثالثا: الجرس والإيحاء:

ويقصد بهما استعمال الألفاظ المعبّرة، واستخدام الصيغ التي تخدم المعني الموضوعة له وتشاكله، فلكل مقام ما يشاكله من الألفاظ التي تتناسب معه قوة وضعفا، ومقام الابتهال برزت فيه بوضوح بعض الصيغ التي كثر استعمال المبتهلين لها، كاسم الفاعل مثلا، حيث تكرر كثيرا في معظم الابتهالات في معرض الثناء على الله تعالى وتعداد صفاته، وهي سمة غلبت على معظم الابتهالات قبل عرض الحاجة، كما في الابتهال الذي علّمه الإمام علي ﷺ لرجل شكى إليه شدة لحقته، وضيقا في الحال، وكثرة في العيال، فأمره أن يبتهل قائلا:

[1] – الحديث: أخرجه ابن ماجه في سننه: في أبواب الدعاء، باب: ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى: ٢/١٢٧٣، ح(٣٨٧١) ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر/ دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

"يَا صَاحِبِي عِنْد شدتي، يَا مؤنسي فِي وَحْدَتي، وَيَا حافظي عِنْد غربتي، يَا وليي فِي نعمتي، وَيَا كاشف كربتي، وَيَا سامع دَعْوَتِي، وَيَا رَاحِم عبرتي، وَيَا مقيل عثرتي، يَا إلهي بالتحقيق، يَا ركني الوثيق، يَا رجائي فِي الضّيق، يَا مولَايَ الشيق، وَيَا رب الْبَيْت الْعَتِيق، أخرجني من حلق الْمضيق، إِلَى سَعَة الطَّرِيق، وَفرج من عنْدك قريب وثيق، واكشف عني كل شدَّة وضيق، واكفني مَا أُطِيق وَمَا لَا أُطِيق، اللَّهُمَّ فرج عني كل هم وكرب، وأخرجني من كل غم وحزن، يَا فارج الْهم، وَيَا كاشف الْغم، وَيَا منزل الْقطر، وَيَا مُجيب دَعْوَة الْمُضْطَر، يَا رَحْمَن الدُّنْيَا وَالْآخِرَة ورحيمها، صلّ على خيرتك مُحَمَّد النَّبِي، وعَلى آله الطيبين الطاهرين، وَفرج عني مَا ضَاقَ بِهِ صَدْرِي، وَعيلَ مَعَه صبري، وَقلت فِيهِ حيلتي، وضعفت لَهُ قوتي، يَا كاشف كل ضرّ وبلية، وَيَا عَالم كل سر وخفية، يَا أَرْحم الرَّاحِمِينَ، وأفوض أَمْرِي إِلَى الله، إِن الله بَصِير بالعباد، وَمَا توفيقي إِلَّا بِاللَّه، عَلَيْهِ توكلت، وَهُوَ رب الْعَرْش الْعَظِيم"[1].

والمطالع لهذا الابتهال يلحظ كثرة ورود صيغة اسم الفاعل (صاحب، مؤنس، حافظ، سامع، كاشف، راحم، مقيل، فارج، كاشف، منزل، مجيب، عالم) وهذه الصيغة بما تشعر به من تجدد وحدوث كالمضارع[2] متناسبة أشد التناسب مع صفات الصحبة والإيناس وغيرها من الصفات؛ لذلك كثر ورودها في فن الابتهال.

كذلك من الصيغ التي تكررت بكثرة في هذا الفن أيضا صيغة الفعل المضارع بما تدل عليه أيضا من تجدد واستحضار للصورة، فقد اعتمد عليه المبتهلون لإظهار ضعفهم وتعلقهم بخالقهم سبحانه وإبراز شدة حاجتهم لنجدته.

---

[1] – الفرج بعد الشدة للتنوخي.١/١٤٤.

[2] - ينظر: الطراز للعلوي.٢/٣٦، المكتبة العنصرية– بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك هذا الدعاء (سيد الاستغفار) في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري رضي الله عنه: عن شداد بن أوس رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)**. قَالَ: **(وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ)**[1].

فالتعبير بالمضارع (أعوذ، أبوء) يبين شدة التجاء المبتهل إلى ربه، واستجارته به، واعترافه بالذنب بين يديه، وكأننا نشاهده وهو يتعلق بربه سبحانه طالبا العفو والمغفرة، كما يدل أيضا على تكرار الاستعاذة والاعتراف بالذنب بما يدل عليه المضارع من تجدد، ومن الصيغ التي تكررت أيضا بكثرة صيغة الأمر؛ لتناسبها مع الابتهال الذي هو في حقيقته طلب، وسيأتي الحديث عن أسلوب الأمر مفصلا في المبحث التالي عند ذكر الأساليب الإنشائية وخصائصها إن شاء الله.

ومن أبرز خصائص المعاني في فن الابتهال:

أولاً: السهولة والوضوح:

فالمبتهل يتوجه إلى خالقه سبحانه، ويعرض حاجته في سهولة ووضوح، وقد علمنا أن الابتهال غالبا ما يكون وقت الشدة والحاجة؛ فحال المبتهل لا تسمح له بالغموض، وإنما تحتم عليه أن يعرض الحاجة في يسر وسهوله؛ لأن كل دأبه أن يزيل الله تعالى شدته، ويزيل همه، ولم نر هذا الغموض والرمز في هذا الفن إلا عند غلاة الصوفية الغارقين في الأوهام، وكأنهم "إنما

[1]- الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: الدعوات، باب أفضل الاستغفار: ٦٧/٨، ح (٦٣٠٦)، ت/ محمد زهير بن ناصر الناصر، نشر دار طوق النجاة ، ط١، ١٤٢٢هـ.

قصدوا أن تستبهم ألفاظهم، وتستغلق عباراتهم على الأفهام غيرة منهم أن تشيع في غير أهلها؛ إذ هي فتح من الله لخاصته الذين أودعهم سر محبته، فمعانيهم النابعة من أذواقهم الخاصة لا يدركها إلا من كان على شاكلتهم"[١].

لكن هذا الفن بوجه عام أو على الأقل معظمه يتسم بسهولة المعاني ووضوحها كما في ابتهالات الرسول ﷺ وأوراد المتصوفين المعتدلين وغيرهم؛ مما يجعل السهولة والوضوح سمة بارزة يتسم بها فن الابتهال.

وهذه الخصيصة من خصائص الابتهال يدركها المتلقي في أي ابتهال يطالعه، ويتضح ذلك جليا في ابتهالات النبي ﷺ ومنها على سبيل المثال ابتهاله ﷺ كل يوم في الصباح والمساء، يرفع يديه إلى السماء.

أخرج مسلم عن عبد الله قال: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال: «**أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله لا إله إلا الله، وحده لا شريك له**» قال: أراه قال فيهن: «**له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر**» **وإذا أصبح قال ذلك أيضا: «أصبحنا وأصبح الملك لله»**[٢].

إن معاني هذا الابتهال من الوضوح والظهور بحيث لا تحتاج إلى أن يدلل عليها، فهي واضحة يدرك كنهها كل أحد، لا تستغلق على الأفهام ولا تحتاج إلى مزيد بيان، وهذا شأن معظم الابتهالات.

---

[١]- من الأدب الصوفي، فن الابتهال د/ أمين بدران صـ٢١٣.

[٢]- الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل: ٤/ ٢٠٨٩، رقم (٢٧٢٣)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

ثانياً: السمو والرفعة والشرف:

تسمو المعاني وتشرف بشرف المقامات التي تقال فيها، وليس هناك مقام أشرف وأسمى من مقام الابتهال الذى يناجى فيه المخلوق الخالق؛ لأن المعاني التي يقصدها المبتهل إما توبة من ذنب، وطلب للمغفرة والرحمة والمدد والعون من الله تعالى، وإما ثناء خالص على الله تعالى ليظل المبتهل في بوتقة الرضا الإلهي، ويأنس بمدارج القرب من مولاه سبحانه، وكلها معان سامية، رفيعة القدر، شريفة الذكر، من هنا تميزت المعاني في هذا الفن بالسمو والرفعة والشرف، وكانت هذه الأوصاف خصيصة من أهم الخصائص وأوضحها في فن الابتهال.

والمطالع لهذا الفن لا يجد عناء في الاستدلال لهذه المعاني، وإنما يكفيه أن يولي وجهه شطر أي ابتهال من الابتهالات، فسيجد هذه المعاني واضحة بارزة فيه، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر ابتهال الشيخ علي الخواص (٩٣٩هـ)[١]:

"اللهم إني أستغفرك من كل ذنب قوي عليه بدني بعافيتك، ونالته يدي بفضل نعمتك، وانبسطت إليه بسعة رزقك، واحتجبت فيه عن الناس بسترك، واتكلت فيه على أناتك وحلمك، وعولت فيه على كريم عفوك، اللهم إني أعوذ

---

[١]- هو: على البرلسي الخواص، أحد العارفين بالله تعالى، كان عابدا تقيا ورعا، كثير البكاء والتضرع، أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك كان يتكلم على الكتاب، والسنة، وأحوال القوم، ومقاماتهم بكلام نفيس عال، وكان يذعن له ولكلامه جماعة من أجلاء علماء مصر منهم: ناصر الدين اللقاني، وشهاب الدين ابن السبكي، وشهاب الدين الرملي، توفي سنة ٩٣٩هـ. ينظر: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة لنجم الدين محمد بن محمد الغزي، ٢١٨/٢، ٢١٩، ت/ خليل المنصور، نشر/ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م. والكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي: ٣/ ٤١٧- ٤٢٣، تحقيق/ محمد أديب الجادر، ط/ دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

بك أن أقول قولا حقا فيه رضاك ألتمس به أحدا سواك، وأعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني، وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك، وأعوذ بك أن يكون أحد من خلقك أسعد بما علمتني مني"[١].

فالمبتهل هنا يستجدي المغفرة من الذنوب، ويطلب رضا خالقه سبحانه؛ حتي لا يكون أحد أقرب إليه منه، وكلها معان تحمل في طياتها السمو والشرف والرفعة في أعلى درجاتها، وهذه المعاني ملموسة في كل ابتهال ، ويكفي ما عرضته شاهدا له.

ثالثاً: الأصالة والصدق:

فالمعاني في هذا الفن- كما سبق- إما طلب للمغفرة ، أو استجداء للرضا والقرب، أو لتخليص من شدة، أو نصرة على عدو، أو ثناء خالص على المولى-عز وجل- وكلها معان أصيلة هادفة في كل ابتهال، ولا تحتاج إلى برهان لإثباتها، كما اتسمت المعاني أيضا بالصدق؛ لأنها صادرة من نفس صافية مقبلة على ربها، فالمبتهل يعيش حالة صفاء روحي؛ فتخرج المعاني صادقة معبرة عن هذا الصفاء، كما أنه يعلم يقينا أن "نجح السؤال في صدق الابتهال"[٢]، هذا فضلا عن أن المبتهل يخاطب الخالق سبحانه الذي يعلم السر وأخفى، فلا تخفى عليه خافية، والمبتهل موقن بذلك، مقر به؛ مما يجعل معانيه تخرج صادقة، لا رياء فيها ولا تصنع؛ لعلمه بحقيقة من يناجيه سبحانه، وهذا أمر أوضح من أن يستشهد له، أو يدلل عليه.

رابعا: النزعة الوجدانية:

فنّ الابتهال وجداني في الدرجة الأولى، يصف نفس قائله وشعوره، ولعل هذا أهم ما يميزه، وتعد هذه الخصيصة من أبرز خصائصه، فالمعاني فيه مطبوعة متلونة بشعور المبتهل وانفعالاته الصادقة، والأدب في حقيقته إنتاج

---

[١] – الأدب في التراث الصوفي د/ خفاجي صـ ٦٧.مكتبة غريب.

[٢]– لطائف الإشارات، تفسير القشيري، ت إبراهيم البسيوني ١/١٢٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣.

وجداني مطبوع، وهذه الخصيصة وحدها جديرة بأن تلفت نظر النقاد لهذا اللون الأدبي قياسا علي انبهارهم بالشعر القديم بحجة أنه شعر مطبوع؛ فانكبوا على دراسته من زوايا متعددة، وأخذهم بسحره وجماله وأغفلوا مثل هذه الألوان الأدبية الرائعة.

وقد وصف ابن قتيبة الشاعر المطبوع فقال: هو "من سمح بالشعر واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته خاتمته، وتبيّنت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر"[١]، ولذلك استثقل النقاد أشعار العلماء لما فيها من تكلف وصنعة، كما فضلّوا أشعار البدو على أشعار الحضر لما في أشعار البدو من الطبع والعفوية، ولما في أشعار الحضر من التكلّف بعوامل من العلم والمداراة وتعقّد الحياة الاجتماعية[٢].

ولا يفهم من كلامي هذا التقليل من الشعر الجاهلي– فهذا مما لم يقل به أحد– وإنما هي دعوة لنظرة شمولية تشمل وتستوعب الألوان الأدبية كلها ومنها فن الابتهال .

وبالرجوع إلى ما سبق يمكن القول: إن من أبرز الخصائص التي تميز بها فن الابتهال من ناحية ألفاظه: رقتها وسلاستها، وإيرادها سهلة لا غموض فيها ولا تكلف. ومن ناحية تراكيبه: وضوحها وسهولتها. ومن ناحية المعاني: شرفها ووضوحها، وسموها ورفعتها، وصدقها وأصالتها. ويزين ذلك كله رونق الطبع وصدق الغريزة، وهي خصائص تبرز جلية في كل ابتهال؛ مما يمنحها صفة العموم في هذا الفن؛ لذا فإنني لم أكثر من الشواهد لأدلل عليها؛ لأن كل ما في البحث من شواهد وغيرها، مما ينتمي إلى هذا الفن يصلح دليلا عليها.

---

[١] – الشعر والشعراء لابن قتيبة.١/٩١، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

[٢]– ينظر: الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي، ١/ ٢٥، ت/ السيد أحمد صقر، نشر/ دار المعارف، ط٤.

المبحث الثاني

الأساليب الإنشائية وخصائصها في فن الابتهال

المتأمل في فن الابتهال يلحظ- دون عناء- كثرة ورود الأساليب الإنشائية، ودورانها في هذا الفن، وذلك لما لها من دور في نقل حاجات النفوس، وإظهار افتقارها إلى خالقها سبحانه وأيضا إبراز شدة تعلق هذه النفوس بربها من خلال هذه الأساليب التي تربط بين المخلوق الضعيف والخالق القوى سبحانه.

كما أن الابتهال هو طلب لم يتحقق بعد، فهو إذاً لا يحتمل صدقا ولا كذبا، ولذلك كانت الأساليب الإنشائية هي المناسبة لهذا الفن، فوردت بكثرة فيه لما لها من دور في نقل الأحاسيس الداخلية التي تترجمها عبارات المبتهلين في صورة أساليب إنشائية معبرة عما بداخلها.

ولكن ورود هذه الأساليب لم يكن على درجة واحدة في فن الابتهال، فتفاوت ورودها كثرة وقلة حسب دواعيها في هذا الفن، وكان أكثرها دورانا، الاستفهام والنداء والأمر، وندر النهى، واختفي تماما التمني؛ لأن التمني طلب المستحيل أو مستبعد الحصول، والمبتهل لا يرى في جناب ربه مستحيلا، بل هو طامع في إجابة سؤله، واثق بأن مولاه سبحانه لن يرده.

أولا: الاستفهام:

يأتي أسلوب الاستفهام على رأس الخصائص البلاغية التي وردت بكثرة في فن الابتهال، والتي لا يكاد يحيد عنها مبتهل؛ ولعلَّ ذلك لما يحمله الاستفهام من مسالك بلاغية عديدة تجعله قادراً علي حمل المعاني المختلفة- حقيقة كانت أو مجازا- وهذا مما يتناسب مع تعدد ضراعات المستغيثين، واستغاثات المكروبين، وقلما يخلو ابتهال عن هذا اللون البلاغي.

لكن الملاحظ أنه لا يأتي الاستفهام معزولا عن الألوان البلاغية الأخرى في فن الابتهال، وإنما دائما يكون ممتزجاً بها، متكاتفاً معها لإبراز خبايا النفوس، وصفائها في لحظة هي أقرب ما تكون لخالقها سبحانه.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ابتهال ابن عطاء الله السكندري (٧٠٩هـ)[١]، حيث يقول في ابتهال طويل:

"إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيرا في فقري؟ إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولا في جهلي؟ إلهي مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك، إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي أفتمنعني منها بعد وجود ضعفي؟ إلهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة عليّ ، وإن ظهرت المساويء مني فبعدلك ولك الحجة عليّ، كيف تكلني إلي نفسي وقد توكلت لي، وكيف أضام وأنت الناصر لي؟ أم كيف أخيب وأنت الحفيّ بي؟ ها أنا أتوسل بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفي عليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك؟

إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتي يكون هو المظهر لك؟ متي غبت حتي تحتاج إلي دليل يدل عليك؟ ومتي بعدت حتي تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ إلهي عميت عين لا تراك عليها رقيبا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا. إلهي أخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكّي وشركي قبل حلول رمسي، بك أستنصر فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإياك أسأل فلا تخيبني، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني، و لجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني.

---

[١]- هو تاج الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله الاسكندراني، الزاهد المذكور تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي، كان ينتفع الناس بإشاراته، وله موقع في النفس وجلالة، ومشاركة في الفضائل. مات كهلا، سنة تسع وسبعمائة. وكانت جنازته مشهودة. ينظر: طبقات الأولياء لابن الملقن: ص: ٤٢١، ٤٢٢، تحقيق: نور الدين شريبه من علماء الأزهر، الناشر: مكتبة الخانجي، بالقاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.

إلهي كيف يُرجي سواك وأنت ما قطعت الإحسان؟ وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدّلت عادة الامتنان؟ يامن أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين .....

إلهي اطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمنتك حتى أقبل عليك.

إلهي كيف أخيب وأنت أملي؟ أم كيف أهان وعليك متكلي"[1].

إن المتأمل في هذا الابتهال الطويل يلحظ توالي الاستفهامات المجازية حاملة معاني الاستنكار والنفي وغيرهما، وهي غالبا تدل علي التجرد من الحول والقوة للعبد في مقابلة إثبات القدرة والقوة علي المنح والسلب لله تعالى.

كما أن هذا التجرد يسبق غالبا المطلوب لتكون التخلية قبل التحلية وهذا أدعي لإجابة سؤله.

كذلك أيضا امتزجت الاستفهامات بألوان بلاغية أخري من أبرزها القصر لتأكيد معني التجرد من كل حَوْل، وإثبات القدرة المطلقة لله تعالي.

وأول ما يطالع الملتقي من هذه الاستفهامات استهلال الشاعر ابتهاله بهذا الاستفهام الممزوج بالقصر في قوله: "إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيرا في فقري؟ إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولا في جهلي؟"

والغرض من هذين الاستفهامين تقرير افتقار العبد لخالقه سبحانه مهما بلغت درجة غناه، كذلك تقرير حقيقة جهل العبد مهما أوتي من العلم.

فالمبتهل هنا معترف بعجزه، مقرٌّ بجهله، وكأنه أراد أن يعلق علي واجهة ابتهاله لافتة يعترف فيها بالعجز والجهل؛ ليستدر رحمة الله – تعالي– وعطفه، وهذا دأب معظم المبتهلين، وتعانق القصر في قوله: " أنا الفقير– أنا الجاهل"

---

[1]– ينظر: تسبيح ومناجاة وثناء على ملك الأرض والسماء لمحمد بن عقيل الشريف.١٥٨/١، نشر دار الأندلس الخضراء، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

مع الاستفهام في إثبات هذه الصفات للمبتهل وتفرده بها، وذلك لأن المبتهل يرى نفسه أفقر الناس و أعجزهم.

كذلك تآزر الطباق بين (الفقر والغنى) و(الجهل والعلم) ليؤكد العجز ويوضحه، واستعمال صيغة المبالغة "جهول" مما يبالغ في جهل العبد، ويقرر افتقاره لمولاه سبحانه.

ومن الاستفهامات الواردة أيضا في هذا الابتهال قوله: "إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي، أفتمنعني منها بعد وجود ضعفي؟ وهو استفهام يقرر إحاطة رحمة الله – تعالي– بعباده في كل أحوالهم كما قرر ذلك سبحانه في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وفي دفقة شعورية تظهر ثقة المبتهل بربه، وتؤكد أنه لا يخيب من رجاه تعالي وتعلق به، تتوالي الاستفهامات المجازية متضمنة معني النفي حيث يقول: "كيف تكلني إلي نفسي وقد توكلت لي؟ وكيف أضام وأنت الناصر لي؟ أم كيف أخيب و أنت الحفيّ بي؟ ها أنا أتوسل بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفي عليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك؟ أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك؟"

وقد جاءت الاستفهامات تتري وكلها تتجه لإثبات تعلق المبتهل بخالقه، وثقته بأنه سبحانه سيجيب مطلوبة دون أن يسأله، فأحوال العباد لا تخفي عليه.

ويدرك الملتقي قدرة المبتهل علي توظيف هذه الاستفهامات المتعددة لتتوفَّر كلها على إثبات شيء واحد هو الثقة فيما عند الله تعالي.

وتعدد هذه الاستفهامات علي هذه الطريقة مما يؤكد ثقة المبتهل في عطاء الله، وأنه تعالي لن يخيب مبتغاه.

وبعد هذه الاستفهامات المتوالية يكثر المبتهل من الثناء علي الله تعالي مبرزا عظيم لطفه تعالي بخلقه لكنه ما يلبث أن يعود مستفهما:

"إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتي يكون هو المظهر لك؟ متي غبت حتي تحتاج إلي دليل يدل عليك؟ ومتي بعدت حتي تكون الآثار هي الموصلة إليك؟" وهذه الاستفهامات تحمل معاني التعجب و النفي، حيث يتعجب المبتهل ممن يطلب دليلا علي وجود الخالق سبحانه كما أنه أيضا ينفي أن يستدل علي الكامل بالناقص، فهو سبحانه أظهر من أن يدل عليه دليل، ولذلك نري المبتهل يذيِّل هذه الاستفهامات بهذا الدعاء: " عميت عين لا تراك عليها رقيبا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا".

ثم يعود المبتهل متعجبا منكراً: " إلهي كيف يرجي سواك وأنت ما قطعت الإحسان؟ وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدَّلت عادة الامتنان؟"

حيث ينكر علي من يطلب الإحسان من غير الله –تعالي– وإحسانه متواصل علي عباده، وامتنانه غير منقطع عنهم، وتبدو براعة المبتهل في جعله الامتنان من المولي سبحانه علي عباده عادة لا تتخلف، وسجيَّة متأصلة لا تنقطع.

والمتأمل يدرك كيف أن أسلوب الاستفهام قد استغرق الابتهال علي طوله – فجاء في أوله وفي وسطه و في آخره– فأعطي الابتهال حرارة، وأبرز تشوق المبتهل إلي ربه سبحانه، فأسلوب الاستفهام كما يذكر البلاغيون: (يحدث في التركيب ما يشبه التيار الكهربي، تزيده الكلمات والحروف وتكرار الاستفهام أحيانا توهجا وتأججا حتى يصل إلى مدى يناسب الموقف وحال المخاطب والنسق الخاص والسياق العام)[1]، مما يدل علي أهمية هذا اللون ودوره الرائد في فن الابتهال.

[1] – الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د/ صباح دراز، صـ١٢٦، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م.

ومن هذا النوع أيضا قول الإمام جعفر الصادق(١٤٨هـ)[١] رضي الله عنه: "أتراك تغل إلي الأعناق أكفا تضرعت إليك، واعتمدت في صلاتها راكعة ساجدة بين يديك، أو تقيد بأنكال الجحيم أقداما سعت إليك، وخرجت من منازلها لا حجة لها إلا الطمع والرغبة فيما لديك، منًّا منك عليها سيدي لا منًّا منها عليك، بل ليت شعري أتراك تصم بين أطباقها أسماعا تلذذت بحلاوة كتابك الذي أنزلت، أو تطمس بالعمى في ظلم مهاويها أبصاراً بكت إليك خوفا من العقاب وفزعا من الحساب"[٢].

والاستفهام هنا "أتراك" قد تكرر غير مرة، وجاء كسابقه في أول الابتهال و في وسطه و في آخره، ليربط بين أجزاء الابتهال برابط قوي مبرزا شدة تعلق المخلوق بخالقه سبحانه لكن المتأمل يدرك أن الاستفهام في وسط الابتهال محذوف؛ لدلالة الاستفهام الأول عليه في قوله: "أو تقيد بأنكال الجحيم أقداماً سعت إليك ....".

لكن لما طال الكلام بين الاستفهام الأول والأخير أعاده المبتهل مرة أخرى، وهذا يتناسب مع ما ذكره البلاغيون من قواعد تخص الحذف والذكر. وهذه الاستفهامات المتكررة" أتراك" تحمل معني النفي، فالمولي سبحانه لا يخيب رجاء من دعاه، ولا يعيد أكفا ارتفعت إليه، ولا أقداما سعت إليه، ولا أسماعا تلذذت بحلاوة سماع آياته، ولا أعينا بكت من خوفه، لا يمكن أن تعود هذه دون جزاء يليق بكرم المولي سبحانه.

---

[١]- هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسن علي بن أبي طالب- رضي الله عنهم أجمعين- كان من سادات أهله، لقب بالصادق لصدقه في مقالته، ولد سنة ثمانين للهجرة، وتوفي سنة ثمان وأربعين ومائة بالمدينة، ودفن بالبقيع. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان.٣٢٧/١، ت/ إحسان عباس، نشر/ دار صادر-بيروت.

[٢]- البيان النبوي.صـ٢١٢.

وبالتأمل يدرك المتلقي كيف أن المبتهل هنا يستعرض جوارح الإنسان، ويبرز دور كل منها في التضرع إلي المولي سبحانه فاليد لها دور والقدم والسمع والبصر كذلك، مما يؤكد أن جوارح المبتهل تقف مع نفسه الصافية وتنقاد لها في اللجوء الي الله–تعالي– فالمبتهل بقلبه وجوارحه يعيش لذة المناجاة للخالق سبحانه.

وهكذا تسلط الاستفهام علي الجوارح العاشقة المستجدية كرم ربها، وأبرز دور هذه الجوارح في المناجاة، ليظهر كمال الامتنان والتذلل والخضوع للمولي سبحانه في أبهي صورة، وذلك استدرارا لرحمة المولي سبحانه وطمعا في إجابة سؤله.

وإذا كانت الاستفهامات السابقة قد افتتح بها المبتهلون ابتهالاتهم فإن هناك من الاستفهامات ما يأتي بعد عرض الحاجه، حيث يفتتح المبتهل بعرض حاجته أولا – ضمنا أو تصريحا– ثم يعمد إلي الاستفهام لإثبات شدة احتياجه إلي نصرة خالقه سبحانه وإبراز شدة الطمع في إجابة دعائه، وخير ما يمثل ذلك دعاؤه ﷺ وابتهاله إلي خالقه بعد أن آذاه أهل الطائف، وخاب ظنه فيهم، وقطع الطمع من نصرتهم هم وغيرهم، فيرفع يديه إلي السماء بعد أن تنكّر له أهل الأرض قائلا:

(اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني علي الناس، يا أرحم الراحمين، إلي من تكلني؟ إلي عدو يتجهمني؟ أم إلي قريب ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السماوات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل عليَّ غضبك، أو أن تنزل عليَّ سخطك، ولك العقبي حتي ترضي، ولا حول ولا قوة إلا بك)[1].

[1]– الحديث: أخرجه الطبراني في الجامع الكبير: مرسلا في مسند عبد الله بن جعفر: ١٣/ ٧٣، رقم (١٨١)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط/ دار النشر: مكتبة ابن =

وبالتأمل في هذا الابتهال النبوي يُلحظ أن النبي ﷺ قد عرض حاجته إلي نصرة ربه ضمنا في قوله: " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ....."

ثم يأتي الاستفهام: إلي من تكلني؟ إلي عدو يتجهمني؟ أم إلي قريب ملكته أمري؟ وهو استفهام موجز يتناسب مع ضيق صدره – ﷺ – مما فعله معه أهل الطائف.

وتتجلي قيمة الاستفهام هنا في إبراز شدة حاجته ﷺ إلي نصرة ربه سبحانه في هذا الوقت الذي تخلي عنه البشر، وقد ضعفت قوته وقلّت حيلته، وأصبح القريب و البعيد أعداءً لدعوته.

والاستفهام هنا مفعم بالرجاء للمولي سبحانه أن لا يوكله إلي أحد غيره، وأن يكون وحده هو ناصره ومعينه، فقد انقطع أمله في نصرة البشر، بعد أن ضعفت القوة، وقلّت الحيلة، وتجرأ عليه البشر، فالصورة صورة عاجز ضعيف شديد الافتقار إلي رحمة مولاه، طالبا المدد منه لا من غيره، وهنا لم يعد أمامه إلا أن يبتهل إلي ربه، ويخلص له في الدعاء، فيَدُ الابتهال– كما يقول ابن الأثير– (ترفع فوادح الأعباء)[1].

كما يحمل الاستفهام هنا معني الإنكار حيث ينكر ﷺ علي نفسه أن يكون له معين غير ربه سبحانه.

=تيمية القاهرة، الطبعة: الثانية. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (٦/ ٣٥): فيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات.

[1] –هذا القول من رسالة بعث بها ابن الأثير إلي الملك الأفضل علي ابن يوسف ابن أيوب ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين ت (٦٢٢هـ) يهنئه فيها ببرئه من المرض ينظر: رسائل ابن الأثير ضياء الدين محمد ابن محمد بن عبدالكريم الجزري ت ٥٥٨هـ – ٦٣٧م ، ت ، نوري حمودي القيسي وهلال ناجي صـ٨٩– مديرية دار الكتب للطباعة والنشر – جامعة الموصل .

ثانيا: النداء:

من أبرز الأساليب الإنشائية أيضا التي كثر دورانها في فن الابتهال حتي صارت سمة بارزة فيه أسلوب النداء.

فالنداء ركيزة أساسية في أسلوب المبتهل، حيث إن المبتهل يناجي خالقه سبحانه ولا سبيل له إلي ذلك إلا النداء لخالقه في مطلع ابتهاله، وتكرير ذلك مع كل فقرة من فقرات الابتهال؛ لأن النداء هو الوسيلة التي تربط بين المخلوق والخالق سبحانه؛ ولذلك وردت معظم الابتهالات مصدَّرة بهذا الأسلوب ؛ لأن الابتهال مناجاة بين العبد وخالقه، ولكي تتحقق هذه المناجاة لابد من رابط يربط بين أطرافها، فكان أسلوب النداء هو الأنسب والأكثر وروداً في هذا الفن، ويكرر المبتهلون النداء في أثناء ابتهالاتهم ولا يكتفون بالنداء في مطلع الابتهال مبالغة في الابتهال، ودلالة على استقلال المطالب، وعلو شأنها.

وقد فصل النحويون في أدوات النداء فقسموها إلى أدوات لنداء القريب، وأدوات لنداء البعيد، والتقط البلاغيون الخيط منهم فتحدثوا عن استعمال الأدوات التي تستعمل للقريب في نداء البعيد والعكس، وذكروا ما فيها من أسرار بلاغية.

ومعلوم أن وظيفة أداة النداء هي تنبيه المنادَى، ولفت نظره إلي ما سيلقى إليه، وبالتأمل في ورود هذا الأسلوب في فن الابتهال يدرك المتلقي أن معظم الابتهالات خلت من أدوات النداء فجاءت محذوفة الأداة؛ وكأن المبتهلين يحذفون هذه الأداة للتدليل على شدة قربهم من خالقهم سبحانه فهم يتحدثون إليه مباشرة دون تنبيه؛ فهو ليس بحاجة إلي ذلك، وكأن هناك اتصالا مباشرا وخطا مفتوحا بين المبتهل وخالقه يجعله يتواصل في أي وقت دون الحاجة إلى أسلوب يلفت نظره إليه به مما يدل على شدة قربهم من خالقهم سبحانه، ومكانتهم عنده.

كما تعددت أيضاً أوصاف المنادَى سبحانه لدى المبتهلين، فنادوا خالقهم بأوصاف متعددة، ناسب كل وصف منها مقام الابتهال الذى ورد فيه، وكان من أكثر الأوصاف ورودا في الابتهال الوصف بالألوهية "إلهي" و"اللهم" ولاشك أن هذا وصف يتفرد به المولى سبحانه ولا يشاركه فيه أحد؛ لذلك لجأ إليه المبتهلون في ابتهالاتهم كثيراً للتدليل على وحدة التوجه، وأنهم يتوجهون إليه سبحانه وحده، وفى الوقت نفسه ينفون أن يكون لهم وجهة غيره سبحانه، ومن ذلك قول يحي بن معين الرازي (ت ٢٥٨هـ)[١]:

"إلهي إذا قلت لي في يوم القيامة عبدي ما غرك بي، أقول: سيدي برّك بي، وإن أدخلتني النار بين أعدائك لأخبرتهم بأني كنت في الدنيا أحبك لأنك مولاي، ومن جميع الأشياء مغناي. اللهم إن نجيّتني نجيّتني بعفوك، وإن عذبتني عذبتني بعدلك، رضيت ما بي لأنك ربي و أنا عبدك.

إلهي تعلم أني لا أقوي علي النار، وأنا أعلم أني لا أصلح للجنة، فما الحيلة إلا عفوك"[٢].

تكرر النداء في هذا الابتهال خمس مرات للمبالغة والدلالة علي استقلال المطالب بذكر أداة النداء في ثلاثة مواضع، وجاءت مرة واحدة بصيغة "اللهم" معوضا عنها بالميم للدلالة علي قرب المنادِي (العبد) من المنادَي (الرب).

وجاء المنادَي (عبدي) في واحدة حذف منها أيضاً حرف النداء تناسبا مع باقي النداءات التي وردت في الابتهال.

---

[١]- هو أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، كان أوحد وقته في زمانه، له لسان في الرجاء خصوصا، وكلام في المعرفة، أقام ببلخ مدة ثم عاد إلى نيسابور، ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين. الطبقات الكبرى للشعراني.٦٩/١، نشر/ مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، ١٣١٥هـ.

[٢]- الصوفية في إلهامهم.٢/ ١٣٣.تأليف/ حسن كامل الملطاوي، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- وزارة الأوقاف المصرية، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

وفي إضافة العبودية إلي ضمير المولي سبحانه (عبدي) إشعار بكمال التذلل والخضوع للمولي سبحانه وهذا دأب المبتهلين، واستلزم هذا النداء (عبدي) أن يأتي وصف المنادَي سبحانه مخالفا للأوصاف التي جاء عليها في هذا الابتهال، فجاء المنادَي التالي (سيدي) ليتناسب مع النداء قبله(عبدي) ليظهر كمال الخضوع والانقياد للمولي سبحانه فهذا أدعي إلي إجابة السؤال، بينما جاءت باقي الأوصاف بصفة الألوهية (إلهي)"اللهم".

ومثل هذا أيضا ابتهال ذي النون المصري (ت٢٤٥هـ)[١]: "إلهي من لم ينسه جميع الهموم رضاه عنك، ولم يلهه عن جميع الملاهي تعداد آلائك، ولم يقطعه عن الأنس بغيرك مكانه منك، كانت حياته ميتة، وميتته حسرة، وسروره غصة، وأنسه وحشة"[٢].

يتضمن هذا الابتهال الحديث عن انقطاع المبتهل عن كل ما يربطه بالدنيا، والتوجه المطلق إلي المولي سبحانه حتي ينسي جميع الهموم والأحزان، فإن العبد اذا انشغل بخالقه سبحانه ولم ينشغل بسواه ابتعدت عنه الهموم، أما إذا كان العكس وألهته الدنيا بزخارفها وزينتها عن الخالق –عز وجل– عاش حياة أشبه بالموت، وكان في عداد الموتى، وتملكته الحسرة حتي يموت علي ذلك.

ولما كان الحديث عن إذهاب للهموم، وفوز بالأنس والقرب تناسب معه وصف المنادي بالألوهية (إلهي) حيث لا يقدر علي إذهاب الهموم والأحزان إلا الله وحده، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤]، فهو وحده القادر علي ذلك.

---

[١]– هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري، المعروف بذي النون، أحد رجال الطريقة، كان أوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا، وكان حكيما فصيحا، وكان أبوه نوبيا، وقيل من أهل أخميم. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٣١٦/١.

[٢]– ينظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن مهران الأصبهاني.٩/ ٣٤٢، نشر/ دار السعادة– مصر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

وقد يلجأ المبتهل إلي وصف المنادَي بصفات أخرى غير الألوهية تناسب مقام الابتهال، ومن هذا قول معروف الكرخي (ت٢٠٠هـ)[١].

"سيدي بك تقرب المقربون في الخلوات، ولعظمتك سبحت الحيتان في البحار الزاخرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات، أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار، والفلك الدوار، والبحر الزخار، والقمر النوار، والنجم الزهار، وكل شيء عندك بمقدار لأنك العلي القهار"[٢].

وقد جاء الوصف (سيدي) هنا متناسبا مع جو العظمة والجلال الذي يسيطر علي هذا الابتهال، وأن الكون كله طوع إرادته، فهو السيد المالك الآمر الناهي لكل ما في هذا الكون، فلعظمته سبّحت الحيتان في البحار، وقدّسته الأمواج المتلاطمات، وسجد له الليل والنهار والفلك والبحر والقمر، والنجم، فما من شيء في هذا الكون إلا يسبّح بحمده، وهذا كله يتناسب معه النداء بوصف السيد دون غيره من الأوصاف أشد المناسبة.

وقد لا يكتفي المبتهل بوصف واحد للمنادَي فيخلع عليه أوصافاً كثيرة إبرازا لكمال الخضوع، وشدة التذلل بين يدي المولي سبحانه، ومن ذلك ابتهال يحي بن معين الرازي(ت٢٥٨هـ):

---

[١] – هو أبو محفوظ معروف بن فيروز، وقيل علي، الكرخي، العارف بالله تعالى، قال الغزالي: كان أحمد بن حنبل وابن معين يختلفان إليه، كان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدبه وهو صبي، فكان المؤدب يقول له: قل ثالث ثلاثة، فيقول معروف: بل هو الواحد، فضربه المعلم على ذلك ضربا مبرحا فهرب منه، ثم أسلم على يد علي بن موسى الرضا، ورجع إلى أبويه، وكان إسلامهما على يديه، وكان مشهورا بإجابة الدعوة، توفي سنة مائتين، وقيل: إحدى ومائتين، وقيل: أربع ومائتين ببغداد. ينظر: وفيات الأعيان.٥/٢٣٣، والكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي: ٣/ ٧١٥– ٧١٨.

[٢] – مصارع العشاق لجعفر بن أحمد القاري البغدادي.١/٢٧٤، نشر/ دار صادر– بيروت.

"إلهي وسيدي ومولاي ومن جميع الأشياء مغناي، ضيعت نفسي بالذنوب فردّها علي بالتوبة، أنت تعلم أن الكريم من عبادك يعفو عمن ظلمه، وقد ظلمت نفسي وأنت أكرم الأكرمين فاعف عني، إلهي أنت تعلم أن إبليس عدو لك ولي، وليس شيء أنكي لكمده وأقطع لكيده من غفرانك فاغفر لي يا أرحم الراحمين"[1]. المبتهل هنا مستشعر بذنبه، نادم علي ضياع نفسه، معترف بالظلم، وأن إبليس قد تمكن منه فأورده المهالك، وهو في الوقت نفسه طامع في رحمة ربه، طالب عفوه وغفرانه.

وأمام هذا الشعور بالضياع يكثر المبتهل من الثناء علي مولاه وخالقه سبحانه وذلك من خلال عدة مظاهر كان من أبرزها:

١- تعداد صفات المنادَي سبحانه في مطلع الابتهال: (إلهي وسيدي ومولاي) فلا يكتفي المبتهل بوصف واحد، وإنما عدّد الصفات تناسبا مع مقام الاعتراف بالذنب والتقصير في حق خالقه، لعلَّ هذا يكون أدعي للإجابة.

٢- الاعتراف بالذنب بين يدي خالقه" ضيعت نفسي بالذنوب- قد ظلمت نفسي- إبليس عدو لك ولي" وهذا مُعين ثان للإجابة.

٣- الثناء علي المولي سبحانه: "أنت أكرم الأكرمين- من جميع الأشياء مغناي-" ويختم المبتهل بوصف جديد مبرزا أداة النداء (يا أرحم الراحمين) وهذا تنويع آخر في الوصف يتناسب أشد التناسب مع المقام، فالمبتهل هنا مقرٌّ بذنوبه، معترف بظلمه، فهو هنا لا يري نفسه في مقام القرب حتي يحذف حرف النداء، فأتى بحرف النداء (يا) التي لنداء البعيد تناسبا مع الاعتراف؛ ولذلك كان وصف المنادَي (أرحم الراحمين) لأنه لولا الرحمة لما طمع هذا المضيَّع في عفو المولي سبحانه.

[1]- الصوفية في إلهامهم.٢/٣٤٢.

ومن هذا النوع الذي تعددت فيه أوصاف المنادَي أيضا ابتهال الإمام الجنيد (ت٢٩٧هـ)[١]: "إلهي وسيدي ومولاي، من أحسن منك حكما لمن أيقن بك، ومن أوسع منك رحمة لمن اتقاك وقصدك؟ ومن أسرع منك عطفا ورأفة لمن أرادك وأقبل علي طاعتك؟ فكلهم في نعمائك يتقلبون، ولك بفضلك عليهم يعبدون"[٢].

وفي هذا الابتهال يتآزر النداء مع الاستفهام المجازي في مقام استدرار رحمة الله تعالي، واستجداء عطفه فاقتضى ذلك أن تكثر الأوصاف التي ينادي بها المبتهل مولاه سبحانه: "إلهي وسيدي و مولاي".

وفي مواضع قليلة في الابتهال يذكر المبتهل أداة النداء ويكررها في ابتهاله كما عند السهروردي (ت٥٦٣هـ)[٣]:

١- هو أبو القاسم الجنيد بن محمد، من متصوفة الصدر الأول، شيخ الصوفية وإمامها الذي يشار إليه بالبنان، أصله من نهاوند، ومنشؤه وحياته في بغداد، وكان يقول: "علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه، لا يقتدى به". ينظر: سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي: ١٤/ ٦٦- ٧٠، ط مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م، والكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي: ١/ ٥٧٠- ٥٨٤، تحقيق/ محمد أديب الجادر، ط/ دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

٢- الصوفية في إلهامهم٢/٣٤٢.

٣-هو عبد القاهر بن محمد بن عبد الله أبو النجيب السهروردي، نسبة إلى سهرورد بالعراق، ولد سنة٤٩٠هـ تقريبا ، وكان يذكر أنه من سلالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عنه سُمع الحديث، وتفقه وأفتى ودرس بالنظامية، وابتنى لنفسه مدرسة ورباطا، وكان مع= =ذلك متصوفا يعظ الناس، وكان يحب العزلة والانقطاع، توفي سنة٥٦٣هـ، ودفن بمدرسته. ينظر: البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي.١٢/٣١٧، ت/ علي شيري، نشر/ دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. وأيضا: وفيات الأعيان ٣/٢٠٥.

"يا إلهي وإله جميع الموجودات من المعقولات والمحسوسات، يا واهب النفوس والعقول، ومخترع ماهيات الأركان والأصول، يا واجب الوجود، ويا جاعل القلوب والأرواح، ويا فاعل الصور والأشباح، يا نور الأنوار ومدبر كل الدوار، أنت الأول الذي لا أول قبلك، وأنت الآخر الذي لا آخر بعدك، الملائكة عاجزون عن إدراك جلالك، والناس قاصرون عن معرفة كمال ذاتك"[١].

المبتهل هنا يعدّد بعض صور قدرة الله تعالي وصفاته الواجبة له، فهو سبحانه واهب كل شيء ومخترعه، وهو واجب الوجود، وجاعل القلوب والأرواح، وخالق الصور والأشباح، ومنور الأكوان ومدبر كل شيء، فهو الأول الذي لا شيء قبله، والآخر الذي لا شيء بعده، وكل الخلق حتي الملائكة عاجزون عن إدراك جلاله وكماله.

فالمقام إذاً مقام تعداد لجوانب قدرة الله تعالى وهذا يقتضي ذكر أداة النداء وتكرارها مع كل وصف جديد، واستخدم المبتهل(يا) للدلالة على بعد منزلة المنادَى سبحانه.

وفي بعض الأحيان يضرب المبتهل صفحا عن النداء، ويدلف إلى الابتهال مباشرة دون ابتداء بالنداء كما عند الإمام الجنيد – رحمه الله –: "أسألك سؤال خاضع خاشع متذلل متواضع ضارع اشتدت إليك فاقته، وأنزل بك على قدر الضرورة حاجته، وعظمت فيها عندك رغبته، وعلم ألا يكون شيء إلا بمشيئتك، ولا يشفع شافع إليك إلا من بعد إذنك ..... أسالك ألا تحجب بسوء فعلي عنك صوتي، ولا تفضحني بخفي ما اطّلعت عليه من سرّي، ولا تعاجلني بالعقوبة علي ما علمته من خلواتي، وكن بي في كل الأحوال رافقا، وعليَّ في كل الأحوال عاطفا"[٢].

---

[١] – مجلة الرسالة لأحمد حسن الزيات باشا، العدد٨١١، صـ٨.

[٢]– الصوفية في إلهامهم.٢/ ١٩٤، ١٩٥.

ولج المبتهل إلى الابتهال مباشرة دون أن يصدّر ابتهاله بالنداء- علي غير عادة المبتهلين- وكأن هناك اتصالاً مباشرا بين المبتهل وخالقه يجعله يتوجه إليه ويناجيه في أي وقت دون الحاجة إلي أسلوب يلفت به نظره إليه، مما يدلّل علي شدة قرب المبتهلين من خالقهم سبحانه، والعيش في معيّته علي الدوام.

وهكذا كان أسلوب النداء ركيزة أساسية في فن الابتهال فقلما يخلو منه أو يحيد عنه مبتهل لما له من دور في لفت النظر، وهو الرابطة التي تربط بين المبتهل وخالقه؛ ولذلك صدَّر به معظم المبتهلين ابتهالاتهم، وكان الغالب فيه حذف حرف النداء دلالة القرب والزلفى، وتنوعت صفات المنادَي سبحانه حسب مقام الابتهال فهو الإله، وهو السيد، وهو المولي، وهو أرحم الراحمين، وغير ذلك.

ثالثا: الأمر:

الأمر من الأساليب الإنشائية التي كثر دورانها في فن الابتهال، وقد اختلفت مواقع وروده في هذا الفن، فتارة يأتي في بداية الابتهال، وتارة يأتي في وسطه- وهو الغالب- حيث يفتتح معظم المبتهلين بالثناء علي الله تعالي أولا قبل أن يعرضوا حاجتهم، وتارة يؤخرون مطلوبهم إلي آخر الابتهال. والأمر- كما هو معلوم - يخرج عن معناه الأصلي من طلب الفعل علي جهة الاستعلاء، إلى معان بلاغية كثيرة يتطلبها المقام، لكن الابتهال لأنه في حقيقته دعاء، فالأوامر الصادرة فيه جميعها تخرج إلي معني واحد هو الدعاء.

ولعلَّ من أبرز الأوامر التي افتتح بها المبتهل ابتهاله بعد النداء مباشرة ابتهاله ﷺ يوم بدر حين اشتدت المعركة وحمي وطيسها وقام ﷺ بعد أن نظّم صفوف المجاهدين رفع يديه وناشد ربه سبحانه.

أخرج مسلم عن عمر ﷺ قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم**

آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه، مادا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك)[1].

والمقام هنا مقام قتال فلا يسمح بإطالة الكلام، هذا فضلا عن أن ابتهالات النبي ﷺ تعتمد على الإيجاز واللمح، وتشير إلى الكثير ببعض القليل"[2]، ولهذا توجه النبي ﷺ إلي ربه بالدعاء مباشرة "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك" والأمر هنا- كما هو واضح- غرضه الدعاء بأن ينصره الله، ويحقّق له ما وعده في قوله تعالي: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٧].

ومن هذا النوع أيضا ابتهال أبي حيان التوحيدي(ت٤..هـ): "اللهم اجعل غدونا إليك مقرونا بالتوكل عليك ، ورواحنا عنك موصولا بالنجاح إليك، ولا تخلنا من يد تستوعب الشكر، ومن شكر يمتري خلق المزيد، ومن مزيد يسبق اقتراح المقترض، وصنع يفوق ذرع الطالبين، اللهم احجز بيننا وبين كل ما دل على غيرك، انقلنا من مواطن العجز مرتقيا بنا إلى شرفات العز، فقد استحوذ الشيطان، وخبثت النفس، وساءت العادة، وكثر الصادفون عنك، وقل الداعون إليك، وقل المراعون لأمرك، وفقد الواقفون عند حدودك، وخلت ديار الحق من سكانها، وبيع دينك بيع الخلق، اللهم فأعد نضارة دينك، وامدد علينا ظل توفيقك"[3].

---

[1] – الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر: ٣/ ١٣٨٣، رقم (١٧٦٣).

[2] – البيان النبوي، د/ محمد رجب البيومي صـ٢١.

[3] – دراسات في التصوف الإسلامي د/ خفاجي١/١٤٩، ١٤٨.

وقد يصل المبتهل إلى مطلوبه بعد كثير من الثناء، وهذا دأب أغلب المبتهلين، فيأتي الأمر بعد شوط طويل من الثناء علي الله تعالي وهذا لا شك أدعي إلي إجابة الدعاء، وخير ما يمثل ذلك ابتهال ذي النون المصري (ت٢٤٥هـ) حيث يقول:

"إلهي ما أصغي إلي صوت حيوان، ولا حفيف شجر، ولا صرير ماء، ولا ترنم طائر، ولا تنعم ظل، ولا دوي ريح، ولا نعقة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالة علي أن ليس كمثلك شيء، وأنك غالب لا تغلب، وعالم لا تجهل، وحليم لا تسفه، وعدل لا تجوز، وصادق لا تكذب، إلهي فإني أعترف بما دل عليه صنعك، وأشهد لك بما دل عليه صنعك، وأشهد لك بما دل عليه فعلك، فهب لي طلب رضاك برضاي ...

إلهي عرّفني عيوب نفسي، وافضحها عندي لأتضرع إليك، وأبتهل بين يديك خاضعا ذليلا في أن تغسلني منها، واجعلني من عبادك الذين شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم، تجول في ملكوتك، وتفكر في عجائب صنعك لترجع بفوائد معرفتك وعوائد إحسانك"[١].

جاء الأمر بمعني الدعاء هنا بعد ثناء طويل استغرق أكثر من نصف الابتهال حيث قوله " فهب لي طلب رضاك برضاي- عرفني عيوب نفسي، وافضحها عندي لأتضرع إليك، وأبتهل بين يديك خاضعا ذليلا، وهذا أمر غرضه الدعاء أن يهب له المولي الاجتهاد في طلب مرضاة ربه، وأن يعرفه عيوب نفسه ويفضحها عنده، والمبتهل هنا لا يطلب عرضا دنيويا علي عادة المبتهلين، حيث لا يطلبون في أدعيتهم شيئا من حطام الدنيا، وإنما همّهم العمل والوصول إلي ما يرضي الله تعالي وأن ينالوا فضل طاعته، وشرف الخضوع إليه.

[١]- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٩/ ٣٤٢.

وعلي هذه الصورة التي جاء الأمر فيها بعد ثناء علي الله تعالي ابتهال العارف بالله أحمد البدوي (ت٦٧٥هـ)[١]:

"اللهم إنك سميت نفسك اللطيف، ونبيك محمداً الشريف، وأنا عبدك الضعيف، كيف يخاف عبد ضعيف وهو بين اللطيف والشريف، عصيتك بجهالتي وأنت حليم، وجئتك محتاجا وأنت كريم، فرج كربتي، وأقل عثرتي، واعصمني من عدوي، بحرمة اسمك العظيم، ونور وجهك الكريم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم"[٢].

جاء الدعاء بعد ثناء علي الله تعالي، وختم به الابتهال، وبهذا تنوّعت مواقع ورود الأمر في الابتهال، كما أن كثيرا من الابتهالات تخلو من أسلوب الأمر؛ لأن همّ المبتهل فيها هو الثناء علي الله فقط، دون طلب شيء منه كما في ابتهال معروف الكرخي (ت٢٠٠هـ):

"سيدي بك تقرب المقربون في الخلوات، ولعظمتك سبحت الحيتان في البحار الزاخرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات، أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار، والفلك الدوار، والبحر الزخار، والقمر النوار، والنجم الزهار، وكل شيء عندك بمقدار لأنك العلي القهار"[٣].

---

[١]- هو أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني، أبو العباس البدوي، المتصوف، صاحب الشهرة في الديار المصرية، أصله من المغرب، ولد بفاس، وطاف البلاد، وأقام بمكة والمدينة، ودخل مصر في أيام الملك الظاهر بيبرس، فخرج لاستقباله هو وعسكره، وأنزله في دار ضيافته، وعظم شأنه في مصر فانتسب إلى طريقته جمهور كبير بينهم الملك الظاهر، وتوفي ودفن في طنطا. ينظر: الأعلام للزركلي.١/ ١٧٥، نشر/ دار العلم للملايين، ط١٥، مايو ٢٠٠٢م.

[٢]- من الأدب الصوفي، فن الابتهال د/ أمين بدران صـ١٩٤، ١٩٥.

[٣] - دراسات في التصوف الإسلامي د/ خفاجي ١٣٨/١.

رابعا: النهي:

وهو من الأساليب نادرة الورود في فن الابتهال، وما ورد منه خرج عن معناه الحقيقي إلي الدعاء أيضا، ومنه ابتهال ذي النون المصري (ت٢٤٥هـ): "إلهي لا تترك بيني وبين أقصى مرادك حجابا إلا هتكته، ولا حاجزا إلا رفعته، ولا وعرا إلا سهّلته، ولا بابا إلا فتحته، حتي تقيمني بين ضياء معرفتك، وتذيقني طعم محبتك، وتبرد بالرضا منك فؤادي، وتجمع أحوالي حتي لا أختار غير ما تختاره، وتجعل لي مقاما بين مقامات أهل ولايتك، ومضطربا فسيحا في ميدان طاعتك "[١].

فالنهي لا تترك غرضه الدعاء بأن يزيل الله الحجب والحواجز حتي يحظى بضياء معرفته، ويذوق طعم محبته، ويبرد بالرضا فؤاده.

وهكذا تنوعت مواطن ورود الأساليب الإنشائية في فن الابتهال، وكانت من البلاغة والمواءمة للمقام في أعلى الدرجات، ولم تكن كلها على درجة واحدة في الكثرة، فكان أكثرها ورودا الاستفهام بدلالاته المتعددة، ومسالكه المتنوعة، تلاه النداء بصوره المختلفة، ثم الأمر الذي لم يتعدّ غرض الدعاء، وفي المرتبة الأخيرة يأتي أسلوب النهي بغرض واحد أيضا وهو الدعاء، وكانت كل هذه الأساليب ملائمة لمقامها مناسبة لمعانيها، وكانت غاية في البلاغة والبيان، واختفى تماما التمني؛ لأنه طلب المستحيل أو مستبعد الحصول، والمبتهلون لا يرون في جانب خالقهم سبحانه شيئا مستحيلا أو مستبعدا.

[١]- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء.٩/٣٤٢.

المبحث الثالث

أسلوب القصر وخصائصه في فن الابتهال

جرت عادة المبتهلين- في معظم ابتهالاتهم- أن يخلعوا على الله سبحانه شتى صفات الجلال والكمال، ويفردونه بالقدرة على إزالة الضر، وجلب الخير؛ لذلك فهم يرونه وحده دون غيره المستحق للثناء، وهو وحده المسئول، وهو وحده المشكو إليه؛ لأنه وحده القادر على إجابة سؤلهم، وجبر خاطرهم، كما جرت عادتهم أيضا أن يخصصوا أنفسهم بالضعف والخوف، ويتجردوا من الحول والقوة؛ استدرارا لعطف المولى سبحانه، واستجلابا لشفقته، تناسبا مع مقام الابتهال، وخير ما يساعدهم على ذلك أسلوب القصر؛ لذلك اعتمد عليه المبتهلون اعتمادا رئيسا في بث شكواهم، ورفعها لمن بيده الإجابة.

لكن يلاحظ أن طرق القصر التي استعملها المبتهلون لم تكن على درجة واحدة في كثرة الاستعمال، فكان أكثرها ورودا التقديم، حيث ورد هذا الطريق بصورة لافتة للنظر في هذا الفن؛ ولعل ذلك فيما أرى لأن التقديم فضلا عن إفادته للقصر، فدلالته على القصر دلالة ذوقية، والمبتهلون "يعتمدون في تجربتهم الشعورية على الذوق والاستبطان الذاتي القائم على شفافية الروح، ونقاء السريرة، وكشف البصيرة"[1]؛ لذلك فهم يخاطبون الأذواق، هذا فضلا عن أن التقديم يفيد في بعض الأحايين- كما هو معلوم- العناية والاهتمام، يقول سيبويه في شأن التقديم: "وكأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كان الجميع يهمانهم ويعنيانهم"[2].

كما أن معظم مواضع ورود القصر في هذا الفن كان القصر فيها قصرا حقيقيا؛ نظرا لأن المبتهلين لا يجنحون إلى الادعاء لأن مقام الابتهال لا

---

[1]- ينظر: فن الابتهال د/ أمين بدران صـ٢١٣.

[2] - الكتاب لسيبويه١/٣٤، ت/ عبد السلام هارون، نشر/ مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

يتطلبه، فمعظم الأوصاف التي ترد في كلامهم على حقيقتها لا ادعاء فيها؛ ولذلك ناسبها القصر الحقيقي.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ابتهاله ﷺ يوم آذاه أهل الطائف: **(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني علي الناس، يا أرحم الراحمين، إلي من تكلني؟ إلي عدو يتجهمني؟ أم إلي قريب ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السماوات والأرض، وأشرقت له الظلمات، و صلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل عليَّ غضبك، أو أن تنزل عليَّ سخطك، ولك العقبي حتي ترضي، ولا حول ولا قوة إلا بك)**[1].

حيث ورد القصر في هذا الابتهال في مواضع كثيرة هي:

– القصر عن طريق تقديم الجار والمجرور على متعلقه (إليك أشكو) لتخصيص شكايته ﷺ لمولاه دون غيره قصرا حقيقيا؛ فالله وحده القادر على إذهاب همه، وإزالة حزنه، وتقوية عزمه، ونصرته في هذا الوقت العصيب.

والتعبير بالفعل "أشكو" يدل على مدى الهم والحزن الذي أصاب النبيﷺ لما فعله معه هؤلاء الأنذال الأخساء، والإتيان به مضارعا يدل على تجدد شكايته ﷺ لمولاه، وإلحاحه على ربه ألا يتخلى عنه، وأن يثبته ويرضى عنه.

– ورد القصر أيضا عن طريق التقديم في قوله: (أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السماوات والأرض، وأشرقت له الظلمات)، تقدم الجار والمجرور (له) على متعلقه مرتين لتخصيص الإضاءة والإشراق بأنها له سبحانه دون غيره، واختار ﷺ أعظم المخلوقات وأبدعها صنعا (السماوات والأرض والظلمات)؛ لإبراز كمال قدرته تعالى، فإذا كانت أعظم المخلوقات

---

[1] – الحديث: أخرجه الطبراني في الجامع الكبير: مرسلا في مسند عبد الله بن جعفر: ١٣/ ٧٣، رقم (١٨١)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط/ دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (٦/ ٣٥): فيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات.

تنير لوجهه، وتشرق لنوره، فليس يستعصي عليه إجابة سؤله، والتسرية عنه في هذا الموقف الرهيب.

– تكرر القصر عن طريق تقديم الجار والمجرور أيضا على متعلقه في قوله: (يحل عليّ غضبك، أو تنزل عليّ سخطك)، حيث تقدم الجار والمجرور (عليّ) علي متعلقه مرتين أيضا لتخصيص الاستعاذة من الغضب والسخط به دون غيره.

– جاء القصر أيضا عن طريق التقديم كسابقيه في قوله: (لك العتبى حتى ترضى) بتقديم الجار والمجرور (لك) لتخصيصه سبحانه بالعتبى (الاسترضاء) دون غيره، قال المناوي: "لك العتبى حتى ترضى: أي، أسترضيك حتى ترضى، يقال: استعتبته فأعتبني، أي استرضيته فأرضاني"[1].

وبالتأمل يتضح كيف أن رضا الله تعالى هو غاية النبي ﷺ رغم كل هذا الإيذاء الذي لحق به، فهو سبحانه إن رضي أبهر بالعطاء.

– خُتم هذا الابتهال –كما بدئ– بالقصر أيضا ولكن عن طريق مغاير للطرق السابقة في قوله: (ولا حول ولا قوة إلا بك)، قصر عن طريق النفي والاستثناء لتخصيص الحول والقوة به سبحانه، فهو الذي يُلجأ إليه عند الشدائد، ويُستنصر به وقت الهزائم، وما أبلغه من قصر تختم به عريضة الشكوى! فالمؤمن حين تغلق أمامه كل الأبواب، ويتخلى عنه الخلق، يجرّد نفسه من كل حيلة ومدد إلا بما يفيض عليه به مولاه سبحانه من غوث وإعانة، فلم يعد أمامه إلا أن (يتوسل بتبريه عن الحول والطاقة والمنة والاستطاعة إلى حضرة الجود، إن أقوى وسيلة للفقير تعلقه بدوام الاستعانة لتحققه بصدق الاستغاثة)[2].

---

[1]– فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، ١١٩/٢، نشر/ المكتبة التجارية الكبرى– مصر–ط١، ١٣٥٦هـ.

[2]– لطائف الإشارات للقشيري، ٥٢/١.

وهكذا تكاثرت مواضع ورود القصر في هذا الابتهال حتى استغرق معظم تراكيبه، واعتمد عليه النبي ﷺ اعتمادا رئيسا في إبراز شدة الحاجة، وعرض المطلوب في أقوى أسلوب، وأوجز عبارة، فأسلوب القصر يعد من أقوى أساليب التوكيد وأبلغها، لأنه كما يقول البلاغيون: (أننا لو رتبنا أساليب التوكيد وأدواته ترتيبا تصاعديا حسب قوة التأكيد لكان القصر قمة وغاية؛ وذلك لأنه تأكيد فوق تأكيد؛ لأنه يشتمل على جملتين، فهو تركيز شديد في الأسلوب)[١].

وبمعاودة التأمل في هذا الابتهال تبدو روعة التناسب والترابط بين المطلع والختام؛ حيث يتبرّى النبي ﷺ في مطلعه من الحول والقوة (إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي)، ويثبتها في الختام مؤكدة لخالقه–جل وعلا–(ولا حول ولا قوة إلا بك)؛ مما جعل الابتهال كله كأنه كلمة واحدة، وبين المطلع والختام يعرض النبي ﷺ حاجته، ويصرّح بمطلوبه، وهو في كل ذلك لا يحيد عن أسلوب القصر، وإنما اتخذه مطية ذلولا للوصول إلى معناه في أبهى صورة، وأقوى معنى، مما يبرز أهمية هذا اللون البلاغي، وقدرته على إبراز حاجة الداعين، وآهات المستغيثين.

كما جاء القصر عن طريق تعريف الطرفين أيضا في ابتهال ابن عطاء الله السكندري (ت٧٠٧هـ): "إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيرا في فقري؟ إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولا في جهلي؟ إلهي مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك، إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي أفتمنعني منها بعد وجود ضعفي؟ إلهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة عليّ ، وإن ظهرت المساويء مني فبعدلك ولك الحجة عليّ"[٢].

---

[١]– أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، د/ صبّاح درازص٩، مطبعة الأمانة، ط١.

[٢]– تسبيح ومناجاة وثناء على ملك الأرض والسماء لمحمد بن عقيل الشريف.١٥٨/١.

افتتح هذا الابتهال بالقصر (أنا الفقير) عن طريق تعريف الطرفين؛ وكأن المبتهل أراد أن يعلق على واجهة ابتهاله لافتة يبرز فيها شدة الحاجة، وكمال الخضوع والتذلل بين يدي المولى سبحانه؛ ليكون مهادا مناسبا قبل عرض الحاجة؛ فيكون ذلك أدعى للإجابة.

كما ورد القصر عن الطريق نفسه – تعريف الطرفين– في الجملة التالية: (أنا الجاهل)؛ لتأكيد شدة الحاجة، فلم يكتف بتخصيص نفسه بالفقر، وإنما عضّد ذلك بالتخصيص بالجهل، وهما وصفان ينفر منهما كل إنسان لكنهما في جناب الله تعالى يكونان موضع فخر وعزة؛ مما يبرز كمال الخضوع والانقياد للمولى سبحانه.

كما جاء القصر عن طريق التقديم أيضا في موضعين:

الأول: في قوله "لك المنة عليّ" بتقديم الجار والمجرور (لك) لتخصيصه سبحانه بالامتنان دون غيره.

الثاني: قوله "لك الحجة عليّ" وهو كسابقه، قدم الجار والمجرور (لك) لتخصيصه بالحجة والإلزام دون غيره، وهما وصفان يبرزان كمال الخضوع والاستسلام بين يدي الخالق سبحانه كما هي عادة المبتهلين.

والمتأمل لكل المواضع التي ورد فيها الابتهال يجد القصر واضحا فيه، ومتكاثرا بطريقة لافتة للنظر، كما أن المتطلع يدركه دون عناء لظهوره وانتشاره في شتى جوانب الابتهال، ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ابتهال الإمام الجنيد: "أسألك سؤال خاضع خاشع متذلل متواضع ضارع اشتدت إليك فاقته، وأنزل بك على قدر الضرورة حاجته، وعظمت فيها عندك رغبته، وعلم ألا يكون شيء إلا بمشيئتك، ولا يشفع شافع إليك إلا من بعد إذنك .... أسالك ألا تحجب بسوء فعلي عنك صوتي، ولا تفضحني بخفي ما اطّلعت عليه من سرّي، ولا تعاجلني العقوبة علي ما علمته من خلواتي، وكن بي في كل الأحوال رافقا، وعليَّ في كل الأحوال عاطفا"[1].

[1] – الصوفية في إلهامهم.٢/١٩٤.

فقد انتشر القصر في هذا الابتهال، وتعددت مواطن وروده، وكان مناسبا أشد التناسب مع المقام.

وهكذا كان القصر ركيزة من أهم الركائز التي اعتمد عليها المبتهلون؛ لإبراز شدة الحاجة وكمال الخضوع وصولا إلى المطلوب؛ مما يؤكد دور أسلوب القصر وأهميته في فن الابتهال، وكان القصر عن طريق التقديم أكثر الطرق ورودا في هذا الفن لاعتماده على الذوق، والمبتهلون أصحاب ذوق عال، هذا فضلا عن إفادته معاني أخرى تتناسب مع مقام الابتهال، تلاه القصر عن طريق تعريف الطريفين، ثم القصر عن طريق النفي والاستثناء لأن أكثر وروده – كما ذكر البلاغيون – في الأمور التي ينكرها المخاطب، والمبتهلون يخاطبون خالقهم، ولا يتناسب معه الإنكار، واختفى في هذا الفن القصر عن طريق إنما، لأن القصر عن هذا الطريق يستفاد منه التعريض في بعض المقامات – وهو أحسن مواقعه – والمبتهلون يخاطبون خالقهم خطابا مباشرا، ويعرضون حاجتهم بين يديه في وضوح تام؛ فليسوا بحاجة إلى التعريض، كما أن القصر في معظم مواضعه في هذا الفن كان من القصر الحقيقي؛ نظرا لأن المبتهلين لا يجنحون إلى الادعاء لأن المقام لا يتطلبه، كما كان قصر الصفة على الموصوف أكثر أنواع القصر ورودا في فن الابتهال؛ لأن المبتهلين إما أن يخلعوا صفات الكمال كلها على خالقهم سبحانه، ويفردونه بها، وإما أن يخلعوا على أنفسهم صفات الحاجة والذلة والانكسار؛ ويجعلونها مخصوصة بهم، وكل ذلك يناسبه قصر الصفة على الموصوف، فضلا عما في هذا القسم من (اهتمام بالموصوف، والتأكيد على اختصاص الفعل به)[1].

❁❁❁❁❁

[1] – ينظر: خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم –عليه السلام– ، د/ الشحات محمد أبو ستيت صـ٥٣٨، مطبعة الأمانة، مصر، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

المبحث الرابع
التكرار وخصائصه في فن الابتهال

توطئة:

الإطناب من الألوان البلاغية التي قلما يخلو منها كلام؛ وذلك لما يشتمل عليه من صور متعددة تناسب كثيراً من المقامات، والإطناب- كما عرفه البلاغيون-: هو عرض المعاني القليلة في ألفاظ كثيرة، وله مقامات كثيرة تستدعي إطالة الكلام وبسطه، كالمدح والفخر، وغيرها.

ومقام الابتهال من المقامات التي يناجي فيها المخلوق خالقه عز وجل وهو مقام قرب وأنس يحتاج فيه المبتهل إلي إطالة الحديث، وبسط الكلام حتي يطيل وقت الأنس، والقرب مع محبوبه سبحانه، يقول الألوسي- رحمه الله-: "وأنت تعلم أنه تحسن الإطالة في مقام الابتهال، ولا يستغني بملزوم عن لازم في المقال"[1]؛ لذلك استعمل المبتهلون بعض صور الإطناب فبدت واضحة في ابتهالاتهم، وكان أكثرها شيوعا التكرار، حيث ورد بكثرة ملحوظة في هذا الفن دون غيره من صور الإطناب الأخرى .

التكرار:

من أكثر صور الإطناب وروداً في فن الابتهال التكرار؛ ولعلَّ السبب في كثرة دورانه هو أن المبتهل يدرك أن من أهم أسباب إجابة الدعاء هو الإلحاح فيه، والإلحاح يتضمن تكرار المطلوب، وعرض الحاجة في صور متعددة وتكريرها في شتي جنبات الابتهال.

ومن أكثر الملامح التي تكررت في فن الابتهال تكرار النداء مع كل فقرة من فقرات الابتهال، وأيضا تكرار المطلب الذي يطلبه المبتهل، والتركيز عليه فيكرره في صيغ مختلفة كما في قول ذي النون المصري:

---

[1] - تفسير الألوسي: ١٤/٢٥٦.

"إلهي ما أصغي إلي صوت حيوان، ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنم طائر، ولا تنعم ظل، ولا دوي ريح، ولا نعقة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالة على أن ليس كمثلك شيء، وأنك غالب لا تغلب، وعالم لا تجهل، وحليم لا تسفه، وعدل لا تجور، وصادق لا تكذب. إلهي فإني أعترف بما دل عليه صنعك، أشهد لك بما دل عليه صنعك، وأشهد لك بما دل عليه فعلك، فهب لي طلب رضاك برضاي.

إلهي من لم ينسه جميع الهموم رضاه عنك، ولم يلهه عن جميع الملاهي تعداد آلائك، ولم يقطعه عن الأنس بغيرك مكانه منك، كانت حياته ميتة، وميتته حسرة، وسروره غصة، وأنسه وحشة.

إلهي عرفني عيوب نفسي وافضحها عندي لأتضرع إليك، وأبتهل بين يديك خاضعا ذليلا في أن تغسلني منها، واجعلني من عبادك الذين شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم، تجول في ملكوتك، وتتفكر في عجائب صنعك لترجع بفوائد معرفتك وعوائد إحسانك، قد ألبستهم خلع محبتك، وخلعت عنهم لباس التزين لغيرك.

إلهي لا تترك بيني وبين أقصى مرادك حجابا إلا هتكته، ولا حاجزا إلا رفعته، ولا وعرا إلا سهلته، ولا بابا إلا فتحته، حتى تقيم قلبي بين ضياء معرفتك، وتذيقني طعم محبتك، وتبرد بالرضا منك فؤادي، وجمّع أحوالي حتى لا أختار غير ما تختاره، وتجعل لي مقاما بين أهل ولايتك، ومضطربا فسيحا في ميدان طاعتك" أ.هـ[1].

تكرر في هذا الابتهال الطويل النداء "إلهي" في مطلع كل فقرة من فقراته، وكأن كل فقرة تتضمن مطلوباً جديدا مستقلا عن سابقه.

كذلك أيضا تكرر عرض المطلوب –رضا الله– في هذا الابتهال في صيغ مختلفة، ففي الفقرة الأولي جاء قوله: "فهب لي طلب رضاك برضاي"،

[1]– حلية الأولياء وطبقات الأصفياء.٣٤٢/٩.

وفي الفقرة الثانية "من لم ينسه جميع الهموم رضاه عنك" وفي الفقرة الثالثة " قد ألبستهم خلع محبتك، وخلعت عنهم لباس التزين لغيرك".

وفي الفقرة الرابعة: "لا تترك بيني وبين أقصي مرادك حجابا إلا هتكته، ... ولا بابا إلا فتحته، حتي تقيم قلبي بين ضياء معرفتك، وتذيقني طعم محبتك، وتبرد بالرضا منك فؤادي".

كرر المبتهل مطلوبه في كل فقرة مع اختلاف في صيغة الطلب، ولاشك أن هذا التنويع يدل علي حرص المبتهل علي إجابة سؤاله، وإلحاحه علي ربه حتي يتحقق له ما يريد.

فالإلحاح علي الله تعالى بتكرير ذكر ربوبيته، من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء، أخرج البزار من حديث عائشة مرفوعا: "**إذا قال العبد: يا رب أربعا، قال الله: لبيك عبدي، سل تعطه**"[1].

وقد يلجأ المبتهل قبل عرض حاجته إلي تعداد نعم الله تعالي ملتزما صيغة واحدة مكررة مع كل نعمة يذكرها، فيثني علي مولاه ثناء متطاولا حتي يكون ذلك أدعي للإجابة، ومن ذلك تكرار كم الخبرية في ابتهال الإمام الجنيد– رحمه الله –: "أسألك سؤال خاضع خاشع متذلل متواضع ضارع اشتدت إليك فاقته، وأنزل بك علي قدر الضرورة حاجته، وعظمت فيما عندك رغبته، وعلم ألا يكون شيء إلا بمشيئتك، ولا يشفع شافع إليك إلا من بعد إذنك، فكم من قبيح قد سترته، وكم من بلاء قد صرفته، وكم من عثرة قد أقلتها، وكم من زلة قد سهلت بها، وكم من مكروه قد رفعته، وكم من ثناء قد نشرته، أسألك يا سامع أصوات المستغيثين، وخفي إضمار الصامتين ... أسالك ألا تحجب بسوء فعلي عنك صوتي، ولا تفضحني بخفي ما اطلعت

[1]– الحديث: أخرجه البزار في مسنده: ١٨/ ١٣٠، رقم (٩٠). وابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك: ص٥٤، رقم (١٤٦). تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م.

عليه من سري، ولا تعاجلني العقوبة علي ما علمته من خلواتي، وكن بي في كل الأحوال رافقا، وعليَّ في كل الأحوال عاطفا"[١].

فالمبتهل هنا يطلب ستر مولاه وعطفه قائلا: "أسالك ألا تحجب بسوء فعلي عنك صوتي، ولا تفضحني بخفي ما اطلعت عليه من سري، ولا تعاجلني العقوبة علي ما علمته من خلواتي، وكن بي في كل الأحوال رافقا، وعليَّ في كل الأحوال عاطفا"، ولكن قبل أن يعرض مطلوبه هذا عدَّد نعما كثيرة للمولي عليه مستعملا كم الخبرية " فكم من قبح قد سترته، ... الخ"

وكم الخبرية هنا متناسبة أشد التناسب مع تعداد النعم لما تفيده من التكثير والمبالغة، فأفادت كثرة النعم التي أنعم الله بها علي عباده.

وكأن المبتهل هنا يجعل تعداد هذه النعم باباً يلج منه إلي خالقه سبحانه ليعرض حاجته، وهذا أيضا أدعي لإجابة سؤله، وأداء مطلوبه.

وتبدو براعة المبتهل هنا بافتتاح هذه المكررات بقوله: " فكم من قبيح قد سترته" وهي متناسبة مع حاجته وطلبه "الستر".

كذلك من الابتهالات التي تكرر فيها النداء وعرض الحاجة ابتهاله ﷺ يوم بدر حين اشتدت المعركة وحمي وطيسها، ناشد ربه قائلا : **(اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد)**، وبالغ في الابتهال حتي سقط رداؤه عن منكبيه، فرده عليه الصديق، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت علي ربك[٢].

فكرر النبي ﷺ النداء" اللهم" ثلاث مرات لاستدرار عطف المولى سبحانه واستجلاب نصره في هذا المقام الشديد.

كذلك كرر النبي ﷺ مطلوبه في صور ثلاث اشتملت عليها الجمل الثلاث التي جاء عليها الابتهال، حيث تضمنت كل جملة المطلوب نفسه الذي

---

١ الصوفية في إلهامهم ١٩٤/٢، ١٩٥.

٢ – الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر: ٣/ ١٣٨٣، رقم (١٧٦٣).

تضمنته سابقتها في ثوب جديد وهو – طلب النصر– فالجملة الأولي: " أنجز لي ما وعدتني" مضمونها طلب النصر، وتكرر الطلب نفسه مؤكدا في الجملة التالية "إني أنشدك عهدك ووعدك"، وتكرر مضمون الطلب نفسه في الجملة الثالثة "إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد"، مما يبرز تشوق النبي ﷺ للنصر، فيجعله يركز عليه ويكرره ليكون ذلك أحري لقبول الدعاء، وأدعي لإجابته، وهذه سمه من سمات المبتهلين في عرض حوائجهم.

والمتأمل للتكرار في كل ما سبق وغيره يدرك كثرة وروده بقسميه– اللفظي والمعنوي– في فن الابتهال، وقد اجتمع القسمان في هذا الابتهال النبوي المشهور، فعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلا دخل المسجد يوم جمعة من باب كان نحو دار القضاء، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم قائم يخطب، فاستقبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قائما، ثمّ قال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السّبل فادع الله يغثنا قال: فرفع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يديه، ثمّ قال: **(اللهمّ أغثنا، اللهم أغثنا، اللهمّ أغثنا)**. قال أنس: ولا والله ما نرى في السّماء من سحاب ولا قزعة. وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار. قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل التّرس، فلمّا توسّطت السّماء انتشرت، ثمّ أمطرت. قال: فلا والله ما رأينا الشّمس سبتا، قال: ثمّ دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائم يخطب. فاستقبله قائما، فقال: يا رسول الله! هلكت الأموال وانقطعت السّبل ، فادع الله يمسكها عنّا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثمّ قال: **(اللهمّ حوالينا، ولا علينا، اللهمّ على الآكام، والظّراب، وبطون الأودية، ومنابت الشّجر)** فانقلعت، وخرجنا نمشي في الشّمس، قال شريك: فسألت أنس بن مالك: أهو الرّجل الأوّل؟ قال: لا أدري)[1].

[1] – الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الإيمان، باب: الدعاء في الاستسقاء، والظراب: واحدها ظرب وهي الروابي الصغار: ٢/٦١٤، ح(٨٩٧).

فقد ورد في هذا الابتهال التكرار بنوعيه، ففي قوله: "اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا" تكرار لفظي، وفي قوله: "اللهم حوالينا لا علينا، اللهم على الآكام، والظراب، وبطون الأودية، ومنابت الشجر"، تكرار معنوي، حيث تكرر المعنى نفسه في الجملتين.

كما أن هناك ابتهالات اقتصرت على التكرار فقط، كما في الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- أنّ النّبيّ ﷺ تلا قول الله ﷻ- في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السّلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٨]، فرفع يديه وقال: **(اللهمّ! أمّتي أمّتي)**، وبكى، فقال الله عزّ وجلّ: (يا جبريل! اذهب إلى محمّد- وربّك أعلم- فسله ما يبكيك؟) فأتاه جبريل عليه الصّلاة والسّلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: (يا جبريل، اذهب إلى محمّد فقل: إنّا سنرضيك في أمّتك ولا نسوءك)[1].

فقوله ﷺ: "أمتي أمتي" ابتهال لا يخفى ما فيه من إيجاز يتناسب مع تأثره ﷺ وخوفه على أمته، مما يبرز دور التكرار، وأنه من الألوان البلاغية التي لا يتخلى عنها مبتهل، وأنه خصيصة من الخصائص البارزة التي تلازم المبتهلين، فهو"وسيلة بيانية لها خطرها بين وسائل البيان، ولها قيمتها الفنية"[2].

---

[1] – الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: صلاة العيدين، باب: دعاء النبي ﷺ: ١/١٩١، ح(٢٠٢).

[2] – التكرار بلاغة. د/ إبراهيم الخولي، صـ٢٧، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٩٣م.

ومن التكرار أيضا: تكرار الاستفهام بدلالاته المتعددة في مواضع شتي في فن الابتهال؛ لإبراز حرارة النفوس وشوقها إلي إجابة مطلوبها، والحصول علي بغيتها[1] .

❁❁❁❁❁

[1] – ذكر ذلك عند الحديث عن الاستفهام ينظر صـ٢٠. من هذا البحث.

المبحث الخامس

المحسنات البديعية وخصائصها

(السجع- الطباق)

المتأمل في فن الابتهال يلحظ في معظم الابتهالات أن المحسنات البديعية تلعب دوراً في هذا الفن، لكن لم يعمد المبتهلون إليها عمدا، ولم يقصدوها تكلفا، وإنما جاءت عفوية في كلامهم.

حيث يتمتع المبتهل بصفاء روحي، وإشراق نفسي يجعل الكلمات تخرج منمقة، في صورة معجبة دون أن يتكلف ذلك.

ومن أبرز الأساليب الإنشائية التي كثر ورودها في فن الابتهال: السجع، والطباق.

أولا: السجع:

يعد السجع من أكثر المحسنات البديعيّة دورانا في هذا الفن، فقلما يخلو منه ابتهال، وذلك لأنه يقع في النفوس موقعا حسنا.

وقد يلتزم المبتهل السجع فيأتي به مستغرقا الابتهال من أوله إلي آخره، وذلك كما في قول الإمام علي رضي الله عنه: "يا صاحبي في شدتي يا مؤنسي في وحدتي، ويا حافظي عند غربتي، يا وليي في نعمتي، ويا كاشف كربتي، ويا سامع دعوتي، ويا راحم عبرتي، ويا مقيل عثرتي، يا إلهي بالتحقيق، يا ركني الوثيق، يا رجائي في الضيق، يا مولاي الشيق، ويا رب البيت العتيق، أخرجني من حلق المضيق، إلي سعة الطريق، وفرَّج من عندك قريب وثيق، واكشف عني كل شدة وضيق، واكفني ما أُطيق ومالا أُطيق، اللهم فرَّج عني كل هم وكرب، وأخرجني من كل غم وحزن، يا فارج الهم، ويا كاشف الغم، ويا منزل القطر، ويا مجيب دعوة المضطر، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، فرّج عني ما ضاق به صدري، وعيل معه صبري، وقلّت فيه حيلتي، وضعفت له قوتي، يا كاشف كل ضر وبلية، و يا عالم كل سر

وخفية، يا أرحم الراحمين، وأفوض أمري إلي الله، إن الله بصير بالعباد، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم"[1].

يستهل الإمام علي رضي الله عنه ابتهاله بالنداء، مستعملا أداة البعد "يا" دلالة علي علو منزلة المنادَى سبحانه، ومع أنه يستعمل أداة البعد إلا أنه يخلع علي المنادى سبحانه أو صافاً تدل علي قربه منه، فهو الصاحب في الشدة، والمؤنس في الوحدة، والحافظ عند الغربة ..... إلي آخر الأوصاف التي وردت في هذا الابتهال، ليدلل علي أن المنادي سبحانه وإن كانت منزلته عالية إلا أنه قريب ممن دعاه، سامع لدعوته، لا يخيب رجاء من دعاه، ولجأ إليه، ومصداق ذلك قوله تعالي: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وتردد السجع في شتي جنبات الابتهال بصورة لافتة للنظر، حتي لم تخلُ منه فقرة من الفقرات، وتنوعت السجعات في الابتهال، وكان لها وقع حسن حيث جعلت للكلام موسيقي عذبة تجعله يقع في النفوس موقعا حسنا، كما أنه جاء عفويا لم يتعمده المبتهل، وإنما المعنى هو الذي تطلبه، وكان- مع كثرة تكراره- غاية في الروعة والمواءمة.

يقول ابن سنان الخفاجي: "والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا متيسرا بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون لفظه، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأجله وورد ليصير وصلة إليه"[2]، وإلى هذا أشار أيضا الإمام عبد القاهر بقوله: "الأحسن والأهدى أن ترسل المعاني على سجيتها، وتدعها تطلب لنفسها....أما أن تضع لنفسك أنه لابد من تجنيس أو سجع بلفظين

[1] -الفرج بعد الشدة للتنوخي: ١/١٤٤.

[2] - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي: صـ١٧١، نشر/دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨٢م.

مخصوصين فهو الذي أنت منه بمعرض الاستكراه، وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم"[1]، فكان السجع في هذا الابتهال- على تنوع سجعاته- في أعلى درجات الحسن؛ لقصر فقراته من ناحية، وتنوع فواصله واختلافها في المعنى من ناحية أخرى، فالبلاغيون يستجيدون السجع القصير الفقرات؛ لأنه أوعر مسلكا، كما أنهم يستحسنون السجع الذي تختلف فواصله في المعنى ولا تتكرر بألفاظ أخرى مرادفة لها.

وتعاضد مع السجع في إبراز المعني في أبهى صوره كثرة صيغ الطلب التي اشتمل عليها الابتهال بعد الاستهلال بالثناء علي المولي سبحانه: "أخرجني- فرَّج- اكشف- اكفني"، ومعناها الدعاء، والمبتهل حتي وهو في أوج طلبه، واستعراض حاجاته لا يتخلى أيضا عن السجع فيقول: "أخرجني من حلق المضيق، إلي سعة الطريق، وفرج من عندك قريب وثيق، واكشف عني كل شدة وضيق، واكفني ما أطيق ومالا أطيق" مما يبرز اعتماد معظم المبتهلين على السجع كوسيلة لتحقيق ضراعاتهم، وارتدائها ثوب الحسن والجمال.

وبالتأمل يتضح كيف أن المبتهل هنا يقدم لحاجته بثناء على مولاه، ثم يعرض حاجته، ويختم كما بدأ بثناء أيضا" يا كاشف كل ضر وبلية، ويا عالم كل سر وخفية، ويصطحب السجع معه في كل ابتهاله.

وبعد ذلك يختم بالاقتباس من القرآن الكريم: "وأفوض أمري إلي الله، إن الله بصير بالعباد" مقتبسا من قوله تعالى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾[غافر: ٤٤].

[1] - ينظر: أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني١٤/١ ، ت/ محمود شاكر، نشر/ مطبعة المدني- القاهرة، دار المدني/ جدة.

وأيضا: "وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، مقتبسا من قول الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

وهو اقتباس ذيَّل به ابتهاله، ليؤكد خلع همومه، وترك مطلوبه على عتبة مولاه، سبحانه فهو الأعلم بحاله، ومنه وحده التوفيق، فما أجمله من اقتباس جاء خاتمة لعرض الحاجة!.

والمطالع لابتهالات النبي ﷺ يدرك اشتمالها على السجع بدرجاته المختلفة (القصير والمتوسط والطويل الفقرات) بصورة لافتة للنظر، وكان معظمها قصير الفقرات الذي يستحسنه البلاغيون كقوله ﷺ في غزوة الأحزاب: **(اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)**[1].

وهذا النوع بما يتضمنه من إيجاز ولمح يتناسب مع الضيق والشدة التي كان فيها الرسول والمسلمون يومئذ، وكان النبي ﷺ "قد ابتهل كثيرا في هذه الغزوة، ودعا الله حتى نصره، وكانت النتيجة أن انتصر الأتقياء الخاشعون، وانهزم اللاهون العابثون"[2]، ونظيره قوله: **(اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت)**[3]، وغير هذا كثير.

---

[1]- الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب: الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة: ٤/ ٤٤، رقم (٢٩٣٣).

[2]- مرويات غزوة الخندق، لإبراهيم المدخلي١/٤٤٨، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ.

[3]- الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التهجد، باب: التهجد بالليل: ٢/ ٤٨، رقم (١١٢٠).

كما جاء السجع متوسط الفقرات في ابتهاله ﷺ أيضا كقوله: **(اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت)**[1].

كما أن المطالع لابتهالاته ﷺ لا يعدم أسجاعا طالت فقراتها وإن كانت قليلة بجانب سابقتيها، كقوله ﷺ: **(اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به)**[2].

فشمل ابتهاله ﷺ أنواع السجع كلها، وكانت غاية في الحسن والمواءمة للمعنى؛ وذلك لأن السجع مما يناسب هذا المقام، مقام التضرع والابتهال إلى الله ﷻ وقد تنوعت فواصل السجع في أحاديث الدعاء بين الطويلة والقصيرة حسب المقام والغرض، فـ "أحاديث الدعاء المسجعة لها رنة وصدى في الأذن مما يناسب حال الداعي الخاشع المتضرع، وقد روعي فيها مناسبة الألفاظ لمعانيها"[3]، وقد اتخذ المبتهلون من ابتهالاته ﷺ نبراسا ينسجون على منواله، حتى أنه قلما يخلو ابتهال من هذا اللون البلاغي الجميل.

ومن الابتهالات التي تزينت بالسجع أيضا ابتهال معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ):

"سيدي بك تقرب المقربون في الخلوات، ولعظمتك سبّحت الحيتان في البحار الزاخرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات، أنت الذي

---

[1] – الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع: ٤/٢٠٨١، ح(٢٧١٠).

[2] – الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل: ٣٠/١٤٥٨، ح (١٨٢٨).

[3] – الخصائص البلاغية للبيان النبوي د/ محمد أبو العلا أبو العلا الحمزاوي صـ٩٤، مكتبة الرشد، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

سجد لك سواد الليل وضوء النهار، والفلك الدوار، والبحر الزخار، والقمر النوار، والنجم الزهار، وكل شيء عندك بمقدار لأنك العلي القهار"[١].

وقد استغرق السجع هذا الابتهال من بدايته إلي نهايته، وهو ابتهال خالص للثناء علي المولي سبحانه ليس ممزوجا بالدعاء: استعرض فيه، المبتهل قدرة الله تعالي وهيمنته علي جميع المخلوقات، وتسبيحها بحمده – تعالي–، وذكر نماذج لمخلوقات أرضية وسماوية" الحيتان– الأمواج– الليل– النهار– الفلك– البحر– القمر– النجم" كلها تسبح بحمد خالقها سبحانه، وكلها ينظم بينها السجع، ويؤلف بينها في جمل بينها أقوي الانسجام.

وتآزر مع السجع في إبراز قوة انقياد الكون لخالقه سبحانه المقابلة بين سواد الليل– ضوء النهار–، وكذلك التناسب بين الحيتان، البحار، الأمواج، وكذلك بين الفلك، والقمر، والنجم، ومعلوم أن "هناك عوالم أخري تسبح بحمد الله، فإذا كانت أقوي الكائنات البحرية "الحيتان" تقر بعظمة الله فما دونها داخل في زمرة التقديس والتعظيم، ولا يقتصر التعظيم علي من استقر في أعماق البحار، وإنما يتعداه إلي تلك الأمواج المتلاطمات"[٢]، بل يتعداه إلي الكون كله أرضه وسمائه.

وما أروع البدء بهذا النداء "سيدي" وكأن هذا الوصف الذي وُصِفَ به المنادى سبحانه، وإن كان هنا مضافا إلي ضمير المبتهل وحده إلا أنه منسحب علي الكون كله فالله سبحانه سيد المبتهل وسيد الكون كله، كما دل علي ذلك بقية الابتهال.

كذلك برع المبتهل في ختم ابتهاله بوصف المولي سبحانه: "بالعلي القهار، لمناسبة هذين الوصفين لما سبق ذكره في الابتهال، "لأنه لا يسخّر هذا الكون إلا من علا فقهر، فكل المخلوقات قهر عظمته"[٣].

---

[١] – دراسات في التصوف الاسلامي د/خفاجي ١/١٣٨.

[٢] – من الأدب الصوفي، فن الابتهال د/ أمين بدران ص١٧٧.

[٣] – من الأدب الصوفي، فن الابتهال د/ أمين بدران ص١٧٧.

وبهذا تآزرت الألوان البلاغية من مقابلة وتناسب وغيرها مع السجع لإبراز شدة الخضوع وحسن الثناء علي المولي سبحانه.

ثانيا: الطباق:

يعد الطباق أيضا من أكثر المحسنات البديعية ورودا في فن الابتهال، وذلك لأنه يساعد المبتهل على الاستقصاء في عرض مطلوبه، فالمبتهل بحاجة إلى كشف كل زوايا حاجته وإظهارها أمام خالقه سبحانه لتشمل الإجابة كل هذه الجوانب، وتعم كل مواطن الحاجة؛ لذا تكرر ورود هذا اللون البلاغي بكثرة على ألسنة المبتهلين.

ومن الابتهالات التي تزينت بالطباق، ابتهاله- صلى الله عليه وسلم-: **(اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي بصري نورا، وفي سمعي نورا، وعن يميني نورا، وعن يساري نورا، وفوقي نورا، وتحتي نورا، وأمامي نورا، وخلفي نورا، واجعل لي نورا)**[1].

وقد تكرر الطباق في هذا الابتهال أكثر من مرة، فجاء بين(اليمين واليسار) و(فوق وتحت) و(أمام وخلف)؛ ليستقصي النبي ﷺ كل ما يحيط بالإنسان من الجهات الست بعدما استقصي الأعضاء الأهم في الإنسان نفسه(القلب والبصر والسمع) وما فيها من مراعاة النظير طلبا لأن يعمَّه النور داخليا وخارجيا، وهذا مما يتناسب مع كرم المدعو سبحانه وما يتسم به عطاؤه من شمولية وكثرة.

وقد انسجم الطباق وتجاوب مع حال الداعي ﷺ الذي يدرك أنه يخاطب جوادًا كريما مما دعاه لتوسعة المطلوب (النور)، ليشمل كل الأرجاء، فيكون الداعي كتلة من النور.

[1] - الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل: ٥٢٨/١، رقم (٧٦٣).

ولم يكتف النبي ﷺ في ابتهاله بهذا الاستقصاء والتفصيل، وإنما جاء بالإجمال في آخر الابتهال بقوله (واجعل لي نورا) "إجمالا لما فصل وتوكيدا له"[١]، وبهذا عرض الابتهال في صورتين:

مفصلة جسّدها مراعاة النظير والطباق، ومجملة ذُيِّل بها الابتهال" واجعل لي نورا" وعرض المعني في صورتين أبلغ وأدل علي الطلب والإلحاح فيه وهو ما يتماشى مع منهج المبتهلين.

والمتأمل لابتهالات النبي ﷺ يدرك أن مواطن ورود الطباق في ابتهالاته جاءت جلُّها علي هذه الطريقة، فإذا كان ﷺ قد فصّل ثم أجمل فإنه في ابتهال آخر يخالف ذلك فيجمل ثم يفصل كما في قوله ﷺ : **(اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقّه وجلّه، وأوله وآخره، وعلانيته وسرّه)**[٢] فأجمل أولا في قوله: "اللهم اغفر لي ذنبي كله" ثم فصّل في بقية الحديث معتمدا الطباق بين الذنوب الصغائر والذنوب الكبائر(دقّه وجله) والأول والآخر، والعلن والسر، فساعد الطباق علي ألا يبقي له ذنوب يخشي العقاب عليها، وهذا دأب المبتهلين.

وهو طباق توشح بالسجع كما هو واضح، وهذا مما زاد المعني جمالا والأسلوب روعة وحسنا.

واذا أردنا استقصاء مواضع ورود الطباق في ابتهالات النبي ﷺ فلن يسعفنا الوقت، وذلك لكثرة ورود هذا الفن في ابتهالاته ﷺ حتي لا يخلو ابتهاله من أي نوع من أنواع الطباق فشمل أنواع الطباق كلها حتى طباق السلب[٣]، كما في قولهﷺ: "اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت، ومن شر مالم أعمل".

---

١ – ينظر: شرح الطيبي على المشكاة: ٩٨/٣.

٢ – الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، ٣٥٠/١، ح (٤٨٣).

٣ – طباق السلب: هو الجمع بين فعلي مصدر واحد، مثبت ومنفي، أو أمر ونهي. بغية الإيضاح د/ عبد المتعال الصعيدي ٥٧٥/٤– مكتبة الآداب، ط١٧، ١٤٢٦هـ.

والطباق هنا من طباق السلب بين قوله: (ما عملت، ومالم أعمل)، حيث (لم يصرح فيه بإظهار الضدين، واختلف فيه الضدان إيجاباً وسلبا، ومصدر الفعلين واحد وهو "العمل" فجاء الأول على الإيجاب، وجاء الثاني على السلب، وبلاغته هنا واضحة لأنه لو قال: "من شر ما عملت" فقط لدخل ما سبق من عمل الشر، ولم يدخل ما يمكن أن يعمله الإنسان من الشر في المستقبل، وعلي ذلك تكون الاستعاذة من الشر مقصورة علي عمل الماضي ولم يدخل فيها المستقبل، فأتى بقوله: "ومن شر مالم أعمل" ليدخل في الاستعاذة العمل في مستقبل الزمان بما لا يرضاه الله، فإنه لا مأمن لأحد من مكر الله، فجاء الطباق هنا ليكون الدعاء جامعا في الاستعاذة من الشر في الماضي والمستقبل)[1].

وبهذا ساعد الطباق في استقصاء الاستعاذة واستغراقها العمل جمعيه، مما يدل علي كمال التجرد والخوف من الله تعالي وبهذا كان السجع والطباق سمتان بارزتان في معظم ابتهالات المبتهلين، وصرخات المكروبين الخائفين.

❁❁❁❁❁

[1] – الخصائص البلاغية للبيان النبوي: ١.٢، ١.٣.

المبحث السادس

خصائص علم البيان في فن الابتهال

قلَّت صور البيان بصفة عامة في فن الابتهال؛ وذلك لأن المبتهلين يصدرون في ابتهالاتهم عن إحساسات صادقة يشعرون بها بعيدا عن الخيال وتهويماته، فلا يعمدون إلي التصوير أو المجاز بل يتركون أنفسهم علي سجيتها، ويعيشون حالة صفاء روحي لا تسمح لهم باللجوء إلي المجاز.

مما جعل صور البيان- على قلتها- في شعرهم تأتي عفوية دون تعمد أو تكلف فتناسب المقام أيما مناسبة.

ومن الابتهالات التي اشتملت علي بعض صور البيان، ابتهاله ﷺ في حجة الوداع:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كَانَ فِيمَا دَعَا بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «**اللهُمَّ إِنَّكَ تَسْمَعُ كَلامِي، وَتَرَى مَكَانِي، وَتَعْلَمُ سِرِّي وعلانيتِي، لا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي، أَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَجِيرُ الْوَجِلُ الْمُشْفِقُ الْمُقِرُّ الْمُعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمسكينِ وأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابتهالَ الْمُذْنِبِ الذَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ وَفَاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ وذلَّ جَسَدُهُ وَرَغِمَ أَنْفُهُ لَكَ، اللهُمَّ لا تَجْعَلْنِي بدُعائِكَ شَقِيًّا، وَكُنْ بِي دَوْمًا رَحِيمًا، يَا خَيْرَ الْمَسْئُولينَ وَيَا خَيْرَ الْمُعْطِينَ**»[1].

وقد اشتمل هذا الابتهال علي جلّ صور البيان، منها:

- التشبيه المتوالي في قوله ﷺ "أسألك مسألة المستكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير".

---

[1] - الحديث: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١١/ ١٧٤، رقم (١١٤٠٥)، ت/حمدي عبد المجيد السلفي، نشر/ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص: ١٦٧) ط المكتب الإسلامي. الطبعة المنقحة.

وقد اشتمل هذا التركيب علي ثلاث تشبيهات بعدد الجمل، فاشتملت كل جملة علي تشبيه مقارب لما في الجملتين الأخريين، فقوله: أسألك مسألة المستكين". شبه النبي ﷺ حاله وهو يدعو ربه بحال المستكين الوجل المشفق علي نفسه، الخائف من ذنوبه، والوجه الانكسار والتذلل.

وقريب منه قوله في الجملة التالية: "وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل" والوجه: الانكسار أيضا.

وشبيه بهما قوله: "وأدعوك دعاء الخائف الضرير".

وبالتأمل يتضح أنه وإن اختلفت الألفاظ إلا أنها تآزرت علي معني واحد لتصوير حالة الانكسار والخضوع بين يدي المولي سبحانه عند سؤاله؛ وهذا من مقتضيات إجابة السؤال، ولم يكتف ﷺ بتشبيه واحد وإنما تضافرت التشبيهات وتكاثرت لأداء المعني وهو ما يعود علي المعني بالتأكيد والمبالغة.

– الكناية في قوله ﷺ: "من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عيناه، وذلّ جسده، ورغم أنفه لك".

وقد تعددت الكنايات في هذا التركيب كما تعددت التشبيهات في التركيب السابق حيث عبر النبي ﷺ بأربع كنايات لإبراز معني واحد وهو الانكسار والخضوع أيضا، فخضوع الرقبة كناية عن الانكسار والتذلل، وفيضان العين كناية عن التذلل أيضا بين يدي المولي سبحانه، وإبراز شدة الضعف والمسكنة بين يديه سبحانه، ومثلها ذل الجسد، ورغم الأنف رمز الشموخ والتكبر مما يؤكد التذلل والخضوع.

وكلها كنايات عن صفة تبرز حال النبي ﷺ وهو بين يدي مولاه سبحانه قبل أن يعرض حاجته.

وبالتأمل يتضح أن الكنايات الأربع استغرقت الجسد كله: الرقبة، والعين، والأنف، والجسد، مما يشعر باستغراق الخضوع والاستكانة وشمولهما للنبي ﷺ وتكمل براعة هذه الكنايات في أنها جاءت مؤكدة لما سبقها من التشبيهات الصريحة: أسالك مسألة المسكين...الخ". فعرض المعني في صورتين:

صريحة من خلال التشبيهات المتوالية، ومكني عنها ثانيا من خلال الكنايات المتوالية أيضا، وهذا أثبت للمعني وأقوي.

ومن صور البيان أيضا التي اشتمل عليها هذا الابتهال النبوي: المجاز المرسل في قوله ﷺ: "من خضعت لك رقبته" لعلاقة الجزئية تأكيد لكمال الخضوع، والمبالغة في الذلة.

وقوله ﷺ أيضا: "فاضت لك عيناه": لعلاقة المحلية؛ فالذي يفيض هو الدمع من العين، ولكن المبالغة اقتضت أن تفيض العين نفسها محل الدموع للمبالغة أيضا، وبهذا تآزرت معظم ألوان البيان من تشبيه وكناية ومجاز مرسل لإبراز المعني في أقوي صورة.

وبمعاودة التأمل في الابتهال من أوله يلحظ المتلقي أن النبي ﷺ قدَّم له بثناء طويل قبل أن يعرض حاجته كما هو الشأن في معظم الابتهالات، والابتهال هنا مقرون بالرجاء.

وقد جرت عادة المبتهلين أن يمزجوا بين الخوف والرجاء في ابتهالاتهم "حتي لا ييأس المريد من رحمة ربه، فيكون في سيره إلي الله بين الخوف والرجاء، أشبه بالطائر الذي يطير بجناحيه معا"[1] فيكون هذا أدعي لإجابة سؤله، وتحقيق مطلوبه.

– ومن الابتهالات التي ازدانت ببعض صور البيان أيضا ابتهال جلال الدين الرومي(٦٧٢هـ)[2]:

---

[1] – الصوفية في إلهامهم: ١/٤٤.

[2] – هو محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد البلخي القونوي الرومي، جلال الدين، ولد سنة ٦٠٤هـ، عالم بفقه الحنفية والخلاف وأنواع العلوم، ثم متصوف، ولد في بلخ بفارس، وانتقل مع أبيه إلى بغداد في الرابعة من عمره، وترعرع بها في المدرسة المستنصرية، ولم تطل مدة إقامته بها، ثم استقر في قونية سنة ٦٢٣هـ، وعرف بالبراعة في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية، توفي سنة ٦٧٢هـ . ينظر الأعلام للزركلي: ٧/ ٣٠٠.

"يا من هو عزاء النفس في ساعة الغم والحزن، يامن فيه غناء الروح عند مرارة الفقر والعوز، يامن نحوه أولي وجهي في حياتي ووجودي، يامن هو أنسي وفرحي وسروري، لو أني وُهبت ملكا لا يبلي، أو أن كنزا خفيا فتح لي يحوي كل ما في الوجود لسجدت لك روحي، ووضعت وجهي في الثري وصحت قائلا ليس لي مراد غير حبك، كل شيء يزول ويفني ويذهب إلي العدم، ويبقي نور الحب خالد سرمديا"[١].

والمبتهل هنا يلجأ إلي مولاه ويستمسك به ساعة الهم والحزن، فلا يجد سواه ركنا حصينا يأوي إليه في شدته، ويستقوي به في كربته.

وقد استخدم المبتهل هنا ألواناً بلاغية كثيرة لإبراز خبايا نفسه من أبرزها: الاستعارة، حيث وردت مرتين في هذا الابتهال:

الأولي: في قوله: "يامن هو غناء الروح عند مرارة الفقر والعوز".

حيث جعل للفقر والعوز طعما مراً يجعل صاحبه يعاني ويتألم، والفقر من المعنويات، والمرارة لا تكون إلا لمطعوم يساغ، وهي استعارة مكنية جسدت الفقر حنظلا ينفر الناس عنه، وصورت الفقير يعاني مرارته، ويكابد وحشته، وعندئذ يكون المهرب والملجأ إلي المولي سبحانه ففيه غناء الروح وريُّها وعذوبتها.

وحُق للفقر أن تكون له مرارة بل هي أقوي من مرارة المحسوسات فهو غصة في حلق صاحبه تجعله لا يذوق للحياة طعما، ولا يري فيها نورا، ولذلك استعاذ منه نبينا ﷺ في قوله: **(اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، أعوذ بك أن أظلم أو أُظلم)**[٢].

الثانية: في قوله في ختام الابتهال: "ويبقي نور الحب خالداً سرمديا".

---

[١] – الصوفية في إلهامهم.١/ ١٤٥.

[٢] - الحديث: أخرجه أبو داود في سننه: في أبواب الوتر، باب: في الاستعاذة: ٢/ ٩١، ح(١٥٧٤). وصححه محققه الألباني. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

حيث جعل للحب الإلهي نوراً يشرق في قلب صاحبه فيزيل همه، وتنجلي به مرارة الفقر والحاجة ، فحب المولي سبحانه إذا سكن في قلب إنسان حوَّل المرارة حلاوة، والظلام نورا، وهي استعارة مكنية كسابقتها أيضا جسدت الحب الإلهي مصباحا لا يخبو ضوؤه، ولا ينقطع مدده طالما سكن هذا الحب قلب المحب وتمكّن منه .

وبالتأمل يتضح كيف أن المبتهل اتكأ علي الاستعارة، فجاءت في المطلع والختام، وصوَّرت حال المبتهل في بداية الابتهال وفي نهايته ، ففي البداية صوَّرت حالة الفقر والحاجة التي جعلته يلجأ إلي مولاه فكانت النتيجة في الاستعارة الثانية أن حظي بنور الحب والقرب من مولاه، وهذا يغنيه عن كل ما سواه، فساعدته الاستعارة في إبراز الحالين المتقابلين للمبتهل وصورتهما أبلغ تصوير.

– ومن صور البيان التي وردت في هذا الابتهال أيضا المجاز المرسل وذلك في موضعين أيضا: .

الأول: قوله " يامن نحوه أولي وجهي في حياتي ووجودي". لعلاقة الجزئية، فالمصلي يتوجه إلي ربه بكل جوارحه، لكن المبتهل هنا يجعل التولية خاصة بالوجه، وكأني به هنا يترسم خطا القرآن الكريم في هذا المجاز في قوله تعالي: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة : ١٤٩]. وهو مجاز معبِّر حيث إن الوجه هو أشرف أعضاء الجسم، فاذا توجّه أشرف الأعضاء للخالق سبحانه فالباقي له تبع، وفي هذا تناسب مع مقام الربوبية، والخضوع للخالق سبحانه.

الثاني: في قوله: "لسجدت لك روحي". لعلاقة الحالّية فالروح حالَّة في الجسد، وهو مجاز متناسب مع مقام السجود أيضا كسابقه، فالشاعر– في الموضع السابق– يتخير أشرف ما في الأعضاء الظاهرية الوجه، وهنا يختار الروح– وهي أشرف ما في الإنسان عامة– ليكونا محلا للسجود مما يدل علي كمال الانقياد والخضوع والتذلل بين يدي الخالق سبحانه وهذا دأب المبتهلين.

وبهذا تكاتف المجاز المرسل مع الاستعارة في هذا الابتهال لإبراز حالة الخضوع والتذلل في أبهى صورة.

ومن الابتهالات التي تأنقت فيها الاستعارة أيضا لتصوير المعنى في أبهى صورة ابتهال العارف بالله أحمد البدوي (ت٦٧٥هـ):

"اللهم افطم جوارحنا عن المخالفات الشرعية، وأنفسنا عن المألوفات العادية، وقلوبنا عن الرعونات البشرية، وأسرارنا عن الكدورات الطبيعية، وأرواحنا عن التجارات الحسية، وعقولنا عن الخيالات الوهمية"[١].

حيث استعار الفطام للجوارح تشبيها لها بالطفل حين يمنع من الرضاع، وهي استعارة رائعة صورت الجوارح وإلفها للمخالفات وتعودها عليها بطفل متعلق بالرضاع، فيكون من الصعوبة الإقلاع عن هذه العادة التي تعود عليها منذ ولادته؛ ولهذا كانت مرحلة الفطام أصعب المراحل في حياة الطفل، حتى إنهم قالوا: إن أول صدمة يتلقاها الطفل بعد ولادته هي حرمانه من الرضاع، وكذلك الشهوات حين تتمكن من النفس البشرية تجعلها تنقاد لها، ولا تستطيع الفكاك عنها بسهولة، فتستمرئ المعاصي وتتعود عليها، ولذلك كانت الاستعارة هنا كاشفة للمعنى ومصورة له أبلغ تصوير، حيث صورت العاصي الذي ألف المعاصي وتعود عليها، ولم يعد سهلا عليه الإقلاع عنها بصورة طفل رضيع حان وقت فطامه، وهي صورة استوحاها المبتهل من الواقع المألوف للجميع، فالكل يعرف هذه الحالة ويدرك صعوبتها على نفس الطفل، فقرب لنا المعنى المقصود، وأوضح مطلوبه – الإقلاع عن المعاصي – في صورة رائقة، وبهذا استطاع المبتهل عن طريق الاستعارة أن يصل إلى مبتغاه في أوضح صورة، ومن أقرب طريق، مما يبرز قيمة الاستعارة وقدرتها على حمل المعاني في وضوح وجلاء.

---

[١] – من الأدب الصوفي ، فن الابتهال د/ أمين بدران صـ١٩٧.

وهذه النماذج لعلم البيان على روعتها وبلاغتها في إبراز المعنى، إلا أن علم البيان لم يكن له حضور بارز في فن الابتهال مثلما كان لقرينيه في علوم البلاغة(المعاني، والبديع)، فقد برزت بعض أبواب هذين العلمين بكثرة في فن الابتهال، وهو ما لم يتح لعلم البيان؛ لما سبق أن بينت من أن المبتهلين لم يعمدوا إلى التصوير أو المجاز، وإنما قصدوا إلى معانيهم قصدا مباشرا، فلم يكونوا بحاجة لفنون علم البيان؛ لذلك لم يعتمدوا عليه إلا في مواطن محدودة، وكان أكثر ألوان البيان ورودا في هذه المواطن على قلتها الاستعارة ثم المجاز المرسل ثم الكناية ، وندر التشبيه.

الخـــــاتمة

بعد هذه الجولة الماتعة في رحاب فن الابتهال يمكن تلخيص أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة فيما يأتي:

١- تميزت الألفاظ في فن الابتهال بالرقة والعذوبة، والتراكيب بالسهولة والوضوح، والمعاني بالصدق والسهولة والرفعة، وكلها تتوافق مع مقام الابتهال، وقد بدا ذلك واضحا أثناء الدراسة.

٢- يقدم معظم المبتهلين في صدر ابتهالاتهم ما يدل على عجزهم وضعفهم وتجردهم من الحول والقوة؛ وكأنهم يعلقون على واجهة ابتهالاتهم لافتة يعترفون فيها بالعجز؛ لاستدرار رحمة الله تعالى، والطمع في إجابة سؤلهم، مستخدمين فيها أقوى الأساليب البلاغية كالقصر والاستفهام وغيرها.

٣- عادة ما يطيل المبتهلون في الثناء على المولى سبحانه خاصة في مطلع الابتهال، قبل عرض حاجتهم، ويحشدون في هذه التقدمات صورا بلاغية كثيرة.

٤- كثرت الأساليب الإنشائية في فن الابتهال بصورة لافتة للنظر، يلحظ ذلك المتلقي دون أدنى عناء، ولعبت دورا رائدا في نقل أحاسيس المبتهلين، وإبراز مشاعرهم تجاه خالقهم سبحانه.

٥- كثرت أساليب الاستفهام في فن الابتهال، واختلفت مواقعها، فمرة يبدأ بها المبتهل ابتهاله قبل عرض حاجته، وتارة يأتي الاستفهام بعد عرض الحاجة، وقد ناسب كل منهما موضعه، كما أنه لا يأتي معزولا عن الألوان البلاغية الأخرى في فن الابتهال، وإنما دائما يكون ممتزجاً بها، متكاتفاً معها لإبراز خبايا النفوس، وصفائها في لحظة هي أقرب ما تكون لخالقها سبحانه.

٦- من الخصائص التي تميز بها أسلوب النداء في فن الابتهال أنه في معظم مواطن وروده حذفت منه أداة النداء، وتنوعت صفات المنادَى، وكان لذلك أسرار عالية، ظهرت في خلال البحث.

٧- لعب أسلوب القصر دورا رئيسا في فن الابتهال، واعتمد عليه المبتهلون كثيرا؛ وذلك لما يضفيه على الأسلوب من جزالة، وعلى المعنى من قوة، وكان أكثر وروده عن طريق التقديم.

٨- تردد التكرار بنوعيه- اللفظي والمعنوي- في شتى جنبات الابتهال، وكان له أعظم الأثر في إبراز حاجة المبتهلين، وإظهار قوة لجوئهم إلى خالقهم سبحانه.

٩- لعبت المحسنات البديعية دورا رائدا في فن الابتهال وكان أكثرها ورودا السجع والطباق؛ فكست الألفاظ حسنا وجمالا، وأضفت على المعنى قوة وجلالا.

١٠- قلَّت صور البيان بصفة عامة في فن الابتهال، وذلك لأن المبتهلين يصدرون في ابتهالاتهم عن إحساسات صادقة يشعرون بها بعيدا عن الخيال وتهويماته، فلا يعمدون إلي التصوير أو المجاز بل يتركون أنفسهم علي سجيتها، ويعيشون حالة صفاء روحي لا تسمح لهم باللجوء إلي المجاز.

وإن كان من توصية تختم بها الدراسة فهي دعوة تضاف إلى مثيلاتها من الدعوات التي تنادي بإخراج هذا الفن إلى حيز النور، وإخراجه من عباءة النسيان والتغافل؛ ففيه الكثير من الكنوز البلاغية التي تستحق الدراسة، لعل ذلك يسهم في تغيير النظرة إلى هذا الفن حتي يقف في مصاف الفنون الأدبية الأخرى التي يوليها الباحثون أهمية وعناية.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع

١) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، نشر دار المعرفة، بيروت.
٢) الأدب في التراث الصوفي د/ محمد عبد المنعم خفاجي، طبعة مكتبة غريب.
٣) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د/ صباح دراز، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
٤) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، د/ صبّاح دراز، مطبعة الأمانة، ط١.
٥) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت/ محمود شاكر، نشر/ مطبعة المدني- القاهرة، دار المدني/ جدة.
٦) الأعلام للزركلي، نشر/ دار العلم للملايين، ط١٥، مايو ٢٠٠٢م.
٧) البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، ت/ علي شيري، نشر/ دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٨) البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، ت/ د/ وداد القاضي-دار صادر- بيروت-ط١٤٠٨١هـ/١٩٨٨م.
٩) بغية الإيضاح د/ عبد المتعال الصعيدي- مكتبة الآداب، ط١٧، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
١٠) البيان النبوي د/ محمد رجب البيومي، طبعة دار الوفاء، ط١سـ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
١١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. ت/ مصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية-بيروت، ط١-١٤١٧هـ.
١٢) التحرير والتنوير للطاهر بن محمد بن عاشور، الدار التونسية للنشر- تونس.١٩٨٤م.

١٣) الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين: تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م.
١٤) تسبيح ومناجاة وثناء على ملك الأرض والسماء لمحمد بن عقيل الشريف، نشر دار الأندلس الخضراء، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ/٢...م.
١٥) التكرار بلاغة. د/ إبراهيم الخولي، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٩٣م.
١٦) تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهري الهروي، ت/محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت ، ط١ ٢..١م.
١٧) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم لعبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ت: د/ محمد الأحمدي أبو النور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ط٢: ١٤٢٤هـ .
١٨) الجامع لأحكام القرآن. القرطبي، ت/أحمد البردوني وإبراهيم أطفيس. دار الكتب المصرية- القاهرة- ط٢.١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
١٩) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن مهران الأصبهاني، نشر/ دار السعادة- مصر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
٢٠) الخصائص البلاغية للبيان النبوي د/ محمد أبو العلا الحمزاوي، مكتبة الرشد، ١٤٢٨هـ/٢..٧م.
٢١) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم -عليه السلام- ، د/ الشحات محمد أبو ستيت، مطبعة الأمانة، مصر، ط١٤١١٢هـ/١٩٩١م.
٢٢) الرحيق المختوم للمباركفوري، ط دار الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى.
٢٣) رسائل ابن الأثير ضياء الدين محمد ابن محمد بن عبدالكريم الجزري ت ٥٥٨هـ - ٦٣٧م ، ت/ نوري حمودي القيسي وهلال ناجي- مديرية دار الكتب للطباعة والنشر – جامعة الموصل .

٢٤) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية، نشر/ مؤسسة الرسالة–بيروت– مكتبة المنار الإسلامية–، ط٢٧، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
٢٥) الزهد لأبي داود السجستاني، نشر دار المشكاة، حلوان ، ط١٤١٤١ – ١٩٩٣م.
٢٦) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، نشر/دار الكتب العلمية، ط١٤.٢١هـ/١٩٨٢م.
٢٧) سنن ابن ماجة، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر/ دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
٢٨) سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
٢٩) السنن الكبرى للنسائي، ت/حسن عبد المنعم شلبي، نشر/ دار الرسالة– بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
٣٠) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي: تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، ط مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.
٣١) الشعر والشعراء لابن قتيبة، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
٣٢) صحيح البخاري، ت/ محمد زهير بن ناصر الناصر، نشر دار طوق النجاة ، ط١، ١٤٢٢هـ.
٣٣) صحيح مسلم، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر/ دار إحياء التراث العربي– بيروت.
٣٤) الصوفية في إلهامهم. تأليف/ حسن كامل الملطاوي، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية– وزارة الأوقاف المصرية، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.
٣٥) ضعيف الجامع الصغير وزيادته للألباني: ط/ المكتب الإسلامي. الطبعة: المجددة والمزيدة والمنقحة.

٣٦) طبقات الأولياء لابن الملقن: تحقيق: نور الدين شريبه من علماء الأزهر، الناشر: مكتبة الخانجي، بالقاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.
٣٧) الطبقات الكبرى للشعراني، نشر/ مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، ١٣١٥هـ.
٣٨) الطراز للعلوي. المكتبة العنصرية- بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.
٣٩) عون المعبود. شرح سنن أبو داود ومعه حاشية ابن القيم. تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، دار الكتب العلمية. بيروت ط٢، ١٤١٥هـ.
٤٠) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، لشمس الدين أبو العون محمد بن أحمد بن سالم الحنبلي، مؤسسة قرطبة.ط٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
٤١) الفرج بعد الشدة للتنوخي، ت/عبود الشالجي- دارصادر، بيروت، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
٤٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي- المكتبة التجارية الكبرى- مصر، ط١ ، ١٣٥٦هـ .
٤٣) الكتاب لسيبويه، ت/ عبد السلام هارون، نشر/ مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٤٤) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي، تحقيق/ محمد أديب الجادر، ط/ دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
٤٥) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة لنجم الدين محمد بن محمد الغزي، ت/ خليل المنصور، نشر/ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م.
٤٦) اللباب في علوم الكتاب لسراج الدين عمر بن علي الحنبلي، ت/عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

٤٧) لسان العرب لابن منظور (بهل)، دار صادر بيروت ط٣، ١٤١٤هـ .
٤٨) لطائف الإشارات، تفسير القشيري، ت إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣.
٤٩) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير– ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد– المكتبة العصرية للطباعة والنشر. بيروت.١٤٢.هـ.
٥٠) مجلة الرسالة لأحمد حسن الزيات باشا، العدد٨١١.
٥١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.
٥٢) مرشد الزوار إلى قبور الأبرار لمكي بن عثمان الشافعي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ.
٥٣) مرويات غزوة الخندق، لإبراهيم المدخلي، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ.
٥٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل للشيباني، ت/ أحمد محمد شاكر، نشر/ دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م.
٥٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشدي ، ، مؤسسة الرسالة ط١ ، ١٤٢١هـ –٢٠٠١م .١٤١٥هـ.
٥٦) مسند البزار (البحر الزخار) تحقيق: عادل بن سعد وآخرين، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٩م
٥٧) مصارع العشاق لجعفر بن أحمد القاري البغدادي، نشر/ دار صادر– بيروت.
٥٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ت/عبدالجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١ ، ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م.
٥٩) معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، ت د/مهدي المخزومي، د/ابراهيم السامرائي، نشر دار ومكتبة الهلال.

٦٠) المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.
٦١) من الأدب الصوفي، فن الابتهال للدكتور/ أمين بدران، وهو بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالمنوفية –جامعة الأزهر– العدد السابع والعشرون – المجلد الأول–١٤٣٣هـ– ٢٠١٢م.
٦٢) الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي، ت/ السيد أحمد صقر، نشر/ دار المعارف، ط٤.
٦٣) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين محمد عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري، در الفيحاء، دمشق، ط٢، ١٤٢٥هـ.
٦٤) وفيات الأعيان لابن خلكان، ت/ إحسان عباس، نشر/ دار صادر– بيروت.

فهـرس الموضـوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٢٨١
المقدمـة: أهميـة الموضـوع وأسـباب اختيـاره، وطريقـة السـير فـي دراسته.	٢٨٣
التمهيد: مفهوم الابتهال، ونشأته.	٢٨٧
المبحث الأول: خصائص الألفاظ والتراكيب والمعاني.	٢٩٣
المبحث الثاني: الأساليب الإنشائية وخصائصها في فن الابتهال.	٣٠٥
المبحث الثالث: القصر وخصائصه في فن الابتهال.	٣٢٥
المبحث الرابع: التكرار وخصائصه في فن الابتهال.	٣٣١
المبحث الخامس: المحسنات البديعية وخصائصها في فن الابتهال.	٣٣٨
المبحث السادس: علم البيان وخصائصه في فن الابتهال.	٣٤٧
الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات.	٣٥٤
ثبت المصادر والمراجع.	٣٥٦
فهرس الموضوعات.	٣٦٢